

الرأي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند



ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (القرآن الحكيم)

ISSN 2347-8950

العدد : ٥ ، السنة : ٥١

جمادى الأولى ١٤٤٨ هـ ، أكتوبر - نوفمبر ٢٠٢٦ م

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس

Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

الاشتراكات

● ثمن النسخة : ٦٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

● في الهند : ٦٠٠ روبية هندية

● وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا

● وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت

Web : <https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine>



طالعها الآن

البريد الإلكتروني

E-mail : info@darululoom-deoband.com

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبها ولا تعبر بالضرورة - عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

♦ تلك المصيبةُ أنسَتْ ما تقدّمها

التحرير ٣

كلمة العدد

♦ الجاه فتنه وأضراره

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري ٤

الفكر الإسلامي

♦ من نفحات القرآن الكريم

العلامة الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله ١٠

دراسات إسلامية

♦ تربية النفس في الإسلام

الأستاذ سيد سيد عبد الرزاق ١٧

♦ من الإعجاز البياني في القرآن الكريم

رئيس التحرير ٢٢

♦ عندما يشهد التاريخ

الأستاذ محفوظ أحمد القاسمي ٣١

♦ من محاسن صحبة أهل الفضل

الأستاذ حازم خنفر ٣٨

♦ القصص القرآنية

الأستاذ محمد عزة دروزة ٤٦

إشراقة

♦ إن كان قال فقد صدق

أبو عائض القاسمي المباركفوري ٥٦

كلمة المحرر

تلك المصيبة أنست ما تقدمها

يشكو المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها حتى في كثير من الدول التي تنتمي إلى الإسلام التخلف والتمهيش والازدراء والاستخفاف والغمز واللمز في دينهم ودنياهم، على أيدي أعدائهم المجاهرين بالعداء، أو الذين تنطوي قلوبهم على الحقد والضغينة والحسد على ما آتاهم من فضله، ويلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، وما نعموا منهم -المسلمين- إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، وهذا في جانب.

وفي جانب آخر تردت أوضاع المسلمين -إلا من شاء ربك- الدينية والخلقية إلى أقصى الحضيض، وطغت نساؤهم وفسق فتيانهم، ورأوا المنكر معروفاً والمعروف منكراً، وخلق القرآن في صدور كثير منهم كما تخلق الثياب، وعاد غيره أحب إليهم، وترى طائفة منهم تعليم الصبيان القرآن الكريم عبثاً ومضبعة للوقت والجهد والمال. وتجد أحدهم إن قصر عن حق الله مَنَّتْهُ نفسه الأمانى، وإن تجاوز إلى نهي الله، قال: أرجو أن يتجاوز الله عني.

ومنهم من تشمئز نفسه من كثير من توجيهات دينه، التي لا تتفق وهوى نفسه، وتطرق جرائم الشكوك والشبهات إلى أصول العقائد فضلاً عن فروعها وأحكام الدين العامة، وبلغ بهم الجهل مبلغاً حوّل كثيراً من ضروريات الدين نظريةً ومحل أخذ ورد.

ومن المنتمين إلى هذه الأمة من يكون له رأي ونظر في صفات الله تعالى بليّ أعناق النصوص الشرعية، وآخر يطعن في الحاجة إلى النبوة، وثالث له نظر في آثار النبوة ونزول الكلام الإلهي من الله تعالى، ورابع له نظر في ختم النبوة، وخامس له رأي في عدالة الصحابة، وسادس يذهب إلى نفي البشرية عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلى إثبات العلم الكلي وعلم الغيب المحيط له، - وهو من صفات الله تعالى -، وسابع ينكر المعاد الجسماني، ويعتبره عزاء وسلوة للقلب دون أن يكون وراءه حقيقة.

وأما العلم الديني والعلماء الذين يسهرون على نشره وتعميمه، فتجد عدداً لا بأس به من أفراد الأمة من يعلن الحرب على العلم والعلماء، ويستमित في نسج الدسائس والمؤامرات ضدهم ليقضي به على هذا النظام التعليمي والتربوي؛ ويغلط أصحابه، ويسفهمهم، ويفند آراءهم ويرذلها، ويراهم عقبة كؤوداً في طريق المسلمين إلى الرقي والازدهار، وتطور البلاد ونماؤها.

وفيه من يسلك مهزلة أخرى من مهازل الأعداء الدالة على طيش أحلامهم ورعونتهم الحمقاء، فيصور الكتاتيب والمدارس الدينية على أنها مفزعة ومبعث قلق.... فكيف يفلح قوم وفيهم هؤلاء وهؤلاء؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله وبه الثقة وعليه التكلان.

تلك المصيبة أنست ما تقدمها وما لها مع طول الدهر نسيان

[التحرير]

(تحريراً في الساعة التاسعة صباحاً من يوم الجمعة: ١٥/٣/١٤٤٨هـ = ٢٠٢٦م/٩/٤)

الجاه فتنه وأضراره

أبيه، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه».

وقال الملا علي القاري في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح [٣٢٤٣ / ٨] في شرح الحديث: «و معناه ليس ذئبان جائعان أرسلا في جماعة من جنس الغنم بأشد إفساداً لتلك الغنم من حرص المرء على المال والجاه، فإن إفساده لدين المرء أشد من إفساد الذئبين الجائعين لجماعة من الغنم إذا أرسلا فيها، أما المال فإفساده أنه نوع من القدرة يحرك داعية الشهوات، ويجر إلى التنعيم في المباحات، فيصير التنعيم مألوفاً، وربما يشتد أنسه بالمال، ويعجز عن كسب الحلال، فيقتحم في الشبهات مع أنها ملهية عن ذكر الله تعالى، وهذه لا ينفك عنها أحد، وأما الجاه فكفى به إفساداً أن المال يبذل للجاه، ولا يبذل الجاه للمال وهو الشرك الخفي، فيخوض في المراءاة والمداهنة والنفاق، وسائر الأخلاق الذميمة، فهو أفسد وأفسد» اهـ.

الجاه هو علو المكانة وقوة التأثير وحب الإفراط في طلب الصيت والسمعة والمدح والثناء، وذلك يسبب كثيراً من الأضرار الدينية والأخلاقية من فساد الدين والكبر والتعاضم والمراءاة، بالإضافة إلى كثير من الأضرار الاجتماعية والنفسية، من فقد السلام النفسي واستغلال النفوذ والتأثير والنفاق المحيط بصاحبه. ولذا سن الإسلام في ذلك قواعد صارمة سامية استأصلت كثيراً من هذه الأمراض والأدواء التي تسربت إلى المجتمع والمنظومة الإدارية، وقطعت الطريق على سوء استخدامه، ووردت النصوص الشرعية من الكتاب والسنة في ذم الحرص على طلب الجاه والتحذير من فتنه وأضراره، فيقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]. والآية بعمومها تشمل الجاه أيضاً.

وروى الترمذي في سننه [برقم: ٢٣٧٦] -

وحسنه - عن ابن كعب بن مالك الأنصاري، عن

وروى مسلم في صحيحه [برقم: ١٧٣٣] عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: دخلت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنا ورجلان من بني عمي، فقال أحد الرجلين: يا رسول الله، أمرنا على بعض ما ولاك الله عز وجل، وقال الآخر مثل ذلك، فقال: «إنا والله لا نولي على هذا العمل أحدا سألته، ولا أحدا حرص عليه».

يقول القاضي عياض (المتوفى ٥٤٤هـ) في إكمال المعلم بفوائد مسلم (٢٢٢/٦): قوله: «إنا لا نولي هذا الأمر أحدا سألته ولا حرص عليه»: لما تقدم من أنه لا يعان عليهما؛ ولأن في الحرص على الشيء التعاطي للقيام به، وذلك في الغالب مقرون بالخذلان، ولما يقع من تهمة الطالب للولاية في ذلك.

ويقول الإمام النووي رحمه الله في شرحه على صحيح مسلم (٢٠٧/١٢): «قال العلماء: والحكمة في أنه لا يولي من سأل الولاية أنه يوكل إليها ولا تكون معه إعانة كما صرح به في حديث عبد الرحمن بن سمرة السابق وإذا لم تكن معه إعانة لم يكن كفؤا ولا يولي غير الكفاء ولأن فيه تهمة للطالب والحريص والله أعلم».

وهل يجوز طلب الولاية والمنصب؟ يقول

القاضي عياض رحمه الله: «قد اختلف العلماء في طلب الولاية مجردا، هل يجوز أو يمنع؟ وأما إن كان لرزق يرتزقه، أو فائد جائر يستحقه بسببها، أو لتضييع القائم بها، أو خوفه حصولها في غير مستوجبها، ونيتة في إقامة الحق فيها فذلك جائز له، وقد قال يوسف - عليه السلام -: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ١٥]».

ويقول العلامة أشرف علي التهانوي رحمه الله في أشرف التفاسير (٣٢٩/٢): «حين قال الملك ليوسف عليه السلام: إن هذا الخطب الجسيم - القحوط - من يتولى التعامل معه ويتصدى له؟ فتقدم يوسف عليه السلام وقال: أنا له: (إِنِّي حَفِيطٌ عَلِيمٌ)، فمن الظاهر أن يوسف عليه السلام هنا يثني على نفسه وأنه كذا وكذا، ويطلب من الملك أن يوليه الأمر، وذلك لأنه كان على علم تام بأن الخطب جسيم والموقف يتطلب المهمة العالية والعزيمة الصادقة، ولم يجد فيهم من يقوم به، فلو أنه تواضع وهضم نفسه في مثل هذا الموقف الحرج لهلكت الرعية، فذكر من صفاته السامية تحديداً بالنعمة؛ ليطمئن بالملك إلى أنه يقدر على اضطلاع هذه المسؤولية الكبرى، و كان على ثقة بأنه يقدر عليه على أحسن وجه، فتقدم بنفسه إلى الملك لتولي هذا

الأمر. فإذا علم المرء من نفسه أنه يقدر على نفع إخوانه، وإراحته، ويقوم بأمر البلاد على وفق الشريعة الإسلامية، بعيداً عن طلب المال والجاه، فإنه يجوز؛ بل يستحسن لمثله أن يطلب المنصب والحكومة، فالشرط أن يتوفر فيه خصلتان: الأولى: لم يقصد جمع المال، والثانية: لم يقصد الجاه والمنصب، وإن حصل له المال والجاه من غير قصد وإرادة منه».

ويقول المفتي محمد شفيع رحمه الله في تفسيره معارف القرآن (ص ٢٧٥٩): «قوله تعالى: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾: دل على أن طلب وظيفة أو منصب حكومي يجوز في الأحوال الخاصة، كما طلب سيدنا يوسف عليه السلام أمانة خزانة الدولة والقيام بمسؤوليتها. وفيه تفصيل وهو أنه إذا علم أن الوظيفة الفلانية لا يقوم بها حق القيام غيره، وعلم من نفسه أنه يقوم بها على أحسن وجه، دون أن يخاف الوقوع في معصية، فإنه يجوز حينئذ طلب الوظيفة شريطة ألا يدفعه إليه حب المال والجاه؛ بل يحمله عليه خدمة خلق الله تعالى والسعي عليهم، وإراحة الحقوق على أصحابها بعدل وإنصاف، وهذا ما كان يواجهه سيدنا يوسف عليه السلام، وأما في غير هذه الحالة فقد ورد

الحديث بالنهي عن طلب الوظيفة، ولم يولّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولاية من طلبها.

فروى مسلم في صحيحه [١٦٥٢] عن عبد الرحمن بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قُلْتُ: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها، وإذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها، فكفر عن يمينك، واث الذي هو خير».

وروى مسلم أيضاً في صحيحه [١٧٣٣] عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أقبلت إلى النبي ﷺ ومعني رجلان من الأشعريين، أحدهما عن يميني، والآخر عن يساري، فكلاهما سأل العمل، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستأذني، فقال: «ما تقول يا أبا موسى؟» أو «يا عبد الله بن قيس؟» قال: فقلت: والذي بعثك بالحق، ما أطلعاني على ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل، قال: وكأني أنظر إلى سواك تحت شفته، وقد قلصت، فقال: «لن، أو لا نستعمل على عملنا من أراده، ولكن اذهب أنت يا أبا موسى»، أو «يا عبد الله بن قيس»، فبعثه على اليمن، ثم أتبعه معاذ بن جبل».

والجاه - على شاكلة الخصال الأخرى - له

درجتان: الأولى: كسب الجاه. والثانية: بذل الجاه. كما أن المال على درجتين: كسبه وبذله. والقول الفصل فيه - كما يقول العلامة التهانوي رحمه الله (المتوفى عام ١٩٤٣م): إن الجاه على مراتب عدة:

- ما حصل من غير كسب وسعي، فهو نعمة خالصة من الله تعالى، فأنبىء الله تعالى وأولياؤه لهم جاه ومنزلة عند الله تعالى، وكلما سمت منزلتهم وجاههم ازدادوا تواضعاً وهضماً للذات، وفي الحديث «من تواضع لله رفعه الله» (رواه ابن أبي شيبة رقم: ٣٤٦٦٣)؛ فإنه يؤمن بأن الجاه الذي ناله إنما هو من الله تعالى دون أن يكون له فيه سعي وكسب.

- ومن وجوه الجاه ألا يتخذ المرء من الأسباب ما يجلب له الجاه والمنزلة، ولكن جاءه مرغماً، فقد اجتمع الناس على اختياره - مثلاً - أميراً أو حاكماً عليهم، فتحقق الجاه هنا بالأسباب، ولكن لم يسع هو له، وإنما اجتمع الناس على الصعود به إلى هذه المنزلة والجاه.

والفرق بين الوجهين أن الأول لم يجتمع فيه حتى الأسباب الظاهرة، لا من قبله ولا من قبل أحد غيره، وإنما هو موهبة من الله تعالى وعطاء منه سبحانه، وأما الثاني فقد اتخذ الناس له الأسباب وإن

لم يمارس هو هذه الأسباب ولا تعاطاها.

ولبذل الجاه واستخدام المنصب وجوه شتى يختلف حكمها من وجه إلى آخر، فأحياناً يجب بذله واستعماله وقد يحرم أو يكره. والضابط له شرعاً هو أنه إذا كان الغرض من بذل الجاه نفع غيره وتحقيق مصلحة من المصالح له، وهي واجبة عليه، فبذل الجاه لأجله واجب، مثلاً: نرى من يتخلف عن الصلاة ونقدر بجاهنا ومنصبنا أن نحمله على إقامة الصلاة، فإنه يجب بذل الجاه لحمله على ما فيه مصلحة له، ويدخل في هذا الباب الحاكم فإنه له أن يبذل جاهه لحمل الرعية على إقامة الصلاة وكذلك الشيخ بالنسبة لأصحابه وتلامذته، والزوج لزوجته، والأب لأولاده، فهنا يجب عليهم بذل الجاه وحمل كل من كان تبعاً لهم على إقامة الصلاة.

وأما إذا كان الغرض من بذل الجاه كسب منفعة ترجع إليه، لا إلى مصلحة تخص غيره، فإنه لا يجوز بذل الجاه لكسب هذه المنفعة لنفسه، ومن الأمثلة على ذلك في التعاملات اليومية أن بعض ذوي الجاه يركبون السيارات أو العربات دون أن يتفقوا على أجره، فإذا نزلوا منها دفعوا إلى صاحب السيارة أو العربة بعض النقود الأقل مما يستحقه

صاحبها، فلا يجد المسكين بداً من قبوله على غضاضة ونظرا إلى جاههم.

ومن وجوه بذل الجاه ما تعرف اليوم من ممارسة الضغوط على أحد في الشفاعة، حيث يستخدم صاحب الجاه جاهه ويحمل المعني بالأمر على أن يقبل شفاعته بصورة أو أخرى، فلا يجوز استخدام الجاه في مثله، فإن الشفاعة لاتعني من قريب أو بعيد الإخلال بحرية الآخرين فيما يرونه ويقضون به. ونحن في غنى عن القول بأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يكونون في نفوسهم أبلغ الاحترام والتقدير وعواطف الفداء والبذل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكل ذلك لم يمنعهم عن حفظ حريتهم واستخدامها، وإن خالف ذلك رأي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشفاعته.

وروى البخاري في صحيحه [برقم: ٢١٠٩]:

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: كان زوج بريرة عبدا أسود لبني فلان، يقال له مغيث، كأني أنظر إليه يطوف خلفها في سكك المدينة يبكي عليها ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبي - ﷺ - لعباس: يا عباس! ألا تعجب من حب مغيث بريرة ومن بغض بريرة مغيثا؟ فقال النبي - ﷺ - : لو راجعته. قالت: يا رسول الله! تأمرني؟ قال: إنما أنا

أشفع. قالت: لا حاجة لي فيه. وفي رواية أبي داود [برقم: ٢٢٣٥]: فقالت: ما أحبُّ أن أكونَ مَعَهُ وإنَّ لي كذا وكذا.

وقد يتساءل المرء أن الجاه يعد من النعمة، فكيف الجمع بين كون الجاه نعمة وبين التحذير منه وذمه؟ أجاب عنه الغزالي في الإحياء (١٠٦/٤) فقال: «وكذلك مدح الجاه والعز إذ منَّ الله تعالى على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن أظهره على الدين كله وحببه في قلوب الخلق وهو المعني بالجاه؛ ولكن المنقول في مدحها قليل، والمنقول في ذم المال والجاه كثير، وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه؛ إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب، ومعنى الجاه ملك القلوب، وإنما كثر هذا وقل ذاك؛ لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال، وطريق الغوص في بحر الجاه، فوجب تحذيرهم؛ فإنهم يهلكون بسم المال قبل الوصول إلى ترياقه ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره، ولو كانا في أعيانها مذمومين بالإضافة إلى كل أحد لما تصور أن ينضاف إلى النبوة الملك، كما كان لرسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا أن ينضاف إليها الغنى، كما كان لسليمان عليه السلام، فالناس كلهم صبيان، والأموال حيات و الأنبياء والعارفون معزومون، فقد يضر الصبي

مالايضر المعزم، نعم المعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حية، وعلم أنه لو أخذها لأجل ترياقها لاقتدى به ولده، وأخذ الحية إذا رآها ليلعب بها، فيهلك فله غرض في الترياق، وله غرض في حفظ الولد، فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد، فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضر به ضرراً كثيراً، ولو أخذها لأخذها الصبي، ويعظم ضرره بهلاكهم، فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها، ويشير على الصبي بالهرب، ويقبح صورتها في عينه ويعرفه أن فيها سما قاتلاً لا ينجو منه أحد، ولا يحدثه أصلاً بما فيها من نفع الترياق، فإن ذلك ربما يغره فيقدم عليه من غير تمام المعرفة».

وإذا وقع المرء فريسة للجاه فما دواؤه وعلاجه؟ يقول العلامة ابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٨٩هـ) في «مختصر منهاج السالكين» (٢١٢/١): «اعلم: أن من غلب على قلبه حب الجاه، صار مقصوراً لهم على مراعاة الخلق، مشغولاً بالتردد إليهم، والمراعاة لهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم، وذلك بذر النفاق، وأصل الفساد؛ لأن كل من طلب المنزلة في قلوب الناس اضطر أن ينافقهم بإظهار

ما هو خال عنه، ويجر ذلك إلى المراعاة بالعبادات واقتحام المحظورات، والتوصل إلى اقتناص القلوب. ولذلك شبه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حب المال والشرف وإفسادهما للدين بذئبين ضارين أرسلنا في غنم. فحب الجاه إذاً من المهلكات، يجب علاجه وعلاجه مركب من علم وعمل، أما الأول، فهو أن يعلم أن السبب الذي لأجله أحب الجاه، هو كمال القدرة على أشخاص الناس وقلوبهم، وذلك إذا صفا وسلم يكون في آخره الموت، فينبغي أن يتفكر في نفسه في الأخطار والآفات اللاحقة لأصحاب الجاه في الدنيا، من تطرق الحسد إليهم، وقصدهم بالإيذاء، فتراهم خائفين على الدوام من زوال جاههم، محترزين من تغيير منزلتهم في القلوب. والقلوب أشد تغيراً من القدرة في غليانها، فلاشتغال بمراعاة ذلك غموم عاجلة، مكدره لحفظ الجاه، فلايفي مرجو الدنيا بمخوفها، فضلاً عما يفوت في الآخرة، فهذا من حيث العلم. وأما العلاج من حيث العمل، فهو إسقاط الجاه من قلوب الخلق بأفعال توجب ذلك».

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

من نفحات القرآن الكريم

(الحلقة ١)

بقلم : العلامة الشيخ أشرف علي التهانوي رَحِمَهُ اللهُ
المعروف بـ «حكيم الأمة» المتوفى ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م

تعريب : رئيس التحرير

يجد القارئ الكريم في هذا العمود النسخة العربية لتفسير «بيان القرآن» لصاحبه العلامة أشرف علي التهانوي رحمه الله، نقله إلى العربية كاتب هذه السطور، وعلق عليه وراجع له لجنة علمية مكونة من أساتذة الجامعات والمشايخ في المدينة المنورة زادها الله شرفاً وكرامة.

سورة الفاتحة

مكية^(١) آياتها سبع^(٢)، وركوعها واحد^(٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ
﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

خلاصة التفسير

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: أي: أفتتح^(٤)

باسم الله تعالى^(٥).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٦): جميع

المحامد^(٧) لائقة بمربي^(٨) كل العوالم.

فائدة: العالم يُطلق على كل جنسٍ من

المخلوقات وحده، مثلاً: عالم الملائكة، وعالم

الإنس، وعالم الجن، وما إلى ذلك.

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الذي هو واسع الرحمة

والإحسان^(٩).

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾: مالك يوم الجزاء.

فائدة: المراد يوم القيامة؛ لأنه يجزى فيه كل

واحد بما عمل.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: نعبدك

وحدك ونطلب منك وحدك العون.

فائدة: هذا خطاب من العبد لله تعالى.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: المراد به:

أرشدنا إلى الطريق المستقيم^(١٠).

فائدة: المراد طريق الدين.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: طريق

الذين أنعمت عليهم.

فائدة: المراد به: نعمة الدين.

والمنعم عليهم هؤلاء قد وصفهم الله تعالى في

آية أخرى فقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ليس طريق الذين غضبت عليهم ولا من ضلوا عن الطريق.

فائدة: الإعراض عن طريق الهداية يرجع إلى أمرين:

أحدهما: عدم التحقيق والنظر والعلم، وهو المراد بـ: ﴿الضَّالِّينَ﴾.

والثاني: عدم العمل بالعلم، وهو المراد بـ: ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، وذلك لأن المخالفة والإعراض عن عمدٍ وقصدٍ أجلب للغضب.

اختلاف القراءات

﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾، وفي قراءة: مَلِكٍ يَوْمَ الدين، ومعناه ظاهر.

وجوه المثاني مع التوجيه

﴿مَلِكٍ﴾: فيه قراءتان: الأولى: ﴿مَلِكٍ﴾ بألف بعد الميم، لعاصم والكسائي، والثانية: ﴿مَلِكٍ﴾ بغير ألف، للباقيين^(١١)، وتوجيه الكل ظاهر^(١٢).

﴿الصِّرَاطِ﴾: فيه قراءات: الأولى: بالإشمام -

وهو أن ينطق القارئ بحرف متولد بين الصاد والزاي -، لخلف^(١٣)، والثانية: بالسين، لقنبل^(١٤)، والثالثة بالصاد الخالصة، للباقيين.

وأصل اللغة بالسين من السَّـرَط، وهو اللقم^(١٥)، والصاد لغة قريش، والزاي الخالصة لغة لعذرة وكعب^(١٦)، وبهذا اتضح توجيه القراءات.

﴿عَلَيْهِمْ﴾: فيه قراءات: الأولى: بضم الهاء وسكون الميم وقفًا ووصلًا، والثانية: بواو بعد الميم وصلًا وسقوط الواو وقفًا، لابن كثير، والثالثة: التخيير بين الواو وسقوطها، لقالون، والرابعة: بالسكون، للباقيين^(١٧).

أسباب النزول والروايات

سورة الفاتحة مكية عند الأكثر، وهو المروي عن علي وابن عباس، وقتادة، وأكثر الصحابة رضي الله عنهم. (روح المعاني)^(١٨).

عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الشكر لله، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ له الخلق كله «(الإيتقان)^(١٩).

وأخرج أحمد والترمذي - وحسنه - وابن حبان في صحيحه عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المغضوب عليهم هم اليهود، وإن الضالين هم النصارى» (الإيتقان)^(٢٠).

والتوفيق بين التفسير النبوي وبين تفسير

الماتن (٢١):

والعدل بها عن النصب إلى الرفع على الابتداء

للدلالة على ثبات المعنى واستقراره، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ [هود: ٦٩]، رفع السلام الثاني للدلالة على أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام حياهم بتحية أحسن من تحيتهم؛ لأن الرفع دالٌّ على معنى ثبات السلام لهم، دون تجدده وحدوثه (٢٨).

الهوامش:

- (١) يأتي الكلام عن ذلك في الروايات.
- (٢) اتفق علماء العدد على أن آيات سورة الفاتحة سبع، إلا أن الكوفيين والمكي منهم يعدّون البسملة آية منها، والمدنيين والبصري والشامي يعدّون أُنْعِمَتْ عَلَيْهِمْ آية. انظر البيان في عدّ أي القرآن (ص ١١٢)، التسهيل لعلوم التنزيل (١/٦٣)، جمال القراء وكمال الإقراء (ص ٢٧٧ ط المأمون).
- (٣) انظر ما سبق في المقدمة عن الركوعات.
- (٤) الجارّ والمجرور لا بد له من متعلّق، وليس بمذكور، فيكون مقدّراً، وقد يكون فعلاً أو اسماً، وعلى التقديرين فيما أن يقدر مقدّماً أو مؤخّراً نحو: أبدأ بسم الله، أو ابتدائي بسم الله، أو بسم الله أبتدئ، أو بسم الله ابتدائي أو الابتداء. وتقدير الفعل أولى من تقدير الاسم؛ لأن كل فاعل يبدأ في فعله بسم الله يكون مضمراً ما جعل التسمية مبدأً له، كما أن المسافر إذا حل أو ارتحل فقال: بسم الله كان المعنى بسم الله أحل، أو باسم الله أرتحل، ويسمّى فعل الشروع: أي الفعل الذي يشرع فيه، فيكون المراد أن إنشاء ذلك الفعل إنما هو على اسم الله. وتقديره فعلاً خاصاً مؤخراً أولى على مذهب الكوفيين؛ لأن الأصل في العمل أن يكون للأفعال، ولأنه يفيد التجدد الاستمراري.

أنه لما كان الغالب على اليهود صفة المكابرة والعناد جعلهم رسول الله ﷺ مصداق (٢٢) قوله تعالى:

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، ولما كان الغالب على النصارى صفة الجهل جعلهم رسول الله مصداق قوله تعالى: ﴿الصَّالِّينَ﴾.

اللغات

﴿اهْدِنَا﴾: هل يعتبر في الدلالة الإيصال أم لا؟ فيه اختلاف المتأخرين من أهل اللسان (٢٣).
ففریق خصها بالدلالة الموصلة، وآخرون بالدلالة على ما يوصل (روح المعاني) (٢٤).

النحو:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: اللام للاستحقاق (٢٥)، كما مثل به عبد الرسول (٢٦) في حواشيه على شرح العوامل لنفسه (٢٧).

البلاغة

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: ارتفاع الحمد بالابتداء، وخبره هو الظرف الذي هو لله، وأصله النصب بإضمار فعله، على أنه من المصادر التي تنصبها العرب بأفعالٍ مضمرة، في معنى الإخبار كقولهم: شكراً، وكفراً، وعجباً، ومنها: سبحانك، ومعاذ الله.

ويصح أن يقدر مصدرا كابتدائي وهو أولى على مذهب البصريين؛ لأنه يفيد الديمومية والثبوت، كأنما الابتداء باسم الله حتم دائم في كل ما تمارسه من عمل، وتردده من قول.

ولعل تقديره فعلاً مؤخراً أولى كما في ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ [الفاتحة: ٥] ولأنه تعالى مقدّم ذاتاً؛ لأنه قديم واجب الوجود لذاته فقدّم ذكراً. ينظر الكشف ٢/١، الجواهر الحسان في تفسير القرآن - الثعالبي (٣٧/١)، غرائب القرآن ورجائب الفرقان (٦١/١)، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (٨٧/١)، روح المعاني (٥٢/١)، حقائق الروح والريحان (٣٧/١).

وقدّره الشيخ المصنّف بأفتح أي أجعله بداءة الفعل.

والباء للملابسة، أي: المصاحبة والإلصاق، وقيل: الباء للاستعانة نحو كتبت بالقلم والمعنى: أقرأ مستعيناً، وفيها من الأدب والاستكانة وإظهار العبودية ما ليس في دعوى المصاحبة، ولأن فيها تلميحاً من أول وهلة إلى إسقاط الحول والقوة، وقيل: بل الملابس أحسن من جعل الباء للآلة؛ لما فيه من زيادة التبرك بملازمة جميع أجزاء الفعل لاسمه تعالى، ينظر: فروع الغيب في الكشف عن قناع الريب (٦٩١/١)؛ الدر المصون (١٤/١)؛ البحر المحيط في التفسير (٢٩/١)؛ روح المعاني (٥٠/١).

(٥) الرحمن الرحيم: الرفيق المتعطف على عباده المتفضل بالنعمة

الجليلة والدقيقة، المحسن على عباده بالنعمة العظيمة الشاملة.

الرحمن يعني المترحم، الرحيم يعني المتعطف بالرحمة على خلقه...، وإنما هما اسمان رفيقان أحدهما أرفق من الآخر، والرفق من صفات الله تعالى. الأسماء والصفات - البيهقي (١٣٩/١)، وقال الزمخشري: فإن قلت: فلم قدّم ما هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه. قلت: لما قال: الرَّحْمَنُ فتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها، أردفه الرَّحِيمَ كالتمتة والريديف ليتناول ما دقّ منها ولطف. الكشف (٨/١)

(٦) قيل: لم تتعرض لبيان تناسق الآيات وتناسبها بعضها مع بعض

في سورة الفاتحة؟

والجواب: أن التناسق والتناسب بين آيات هذه السورة ظاهر،

ثم إنه لم يخطر ببالي أن أتقيد ببيان التناسق والتناسب بين الآيات في بدء تدوين هذا الكتاب، شأنه في ذلك شأن غيره مما التزمت وتقيدت به في المرحلة اللاحقة من العمل حين مست الحاجة إليه في تدوين هذا التفسير، فازددت التزاماً وتقييداً بذلك من سورة المائدة. (منه).

(٧) الحمد: عبارة عن مدح الغير على وجه التعظيم بسبب كونه منعماً

متفضلاً، وهو يعم ما إذا وصل ذلك الإنعام إليك أو إلى غيرك. ينظر مفاتيح الغيب (١٩١/١-١٩٣)، وهو الثناء أي الذكر بالخير على وجه التعظيم على الوصف الجميل الاختياري من نعمة أو غيرها من الفضائل وهي النعم القاصرة أم بالفواضل، وهي النعم المتعدية.

والمدح: هو الثناء على الجميل مطلقاً. تقول حمدت زيداً على علمه وكرمه، ولا تقول حمدته على حسنه، بل مدحته.

وقيل هما أخوان أي متشابهان.

والشكر: مقابلة النعمة قولاً وعملاً واعتقاداً. أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢٧/١)، وينظر الكاشف عن حقائق السنن (١١٩٥/٤)، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (١٨٥/٢٢)، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (٩٠/١)، نواهد الأبيكار وشوارد الأفكار (١٥٥/١)، وفي الحمد تعظيم وفخامة ليست في المدح والشكر، وهو أخص بالعقلاء والعظماء منها، فلذلك إطلاقه على الله تعالى أكثر؛ بل الحمد لا يطلق تعظيماً لغير الله تعالى. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (٣٩/١).

(٨) الربّ المصلح للشيء المدبّر المربّي له، من التربية، والتربية: تبليغ

الشيء إلى كماله على التدريج، تفسير الراغب الأصفهاني (٥٤/١)، وإنما يقال لغير الله تعالى: ربّ كذا مضافاً، لأن الألف واللام للتعميم وهو لا يملك الكل. انظر معالم التنزيل - طيبة (٥٢/١)، وقيل: هو السيد المطاع، وقيل: المالك للشيء، وقيل: الرب في الأصل مصدر بمعنى التربية، وُصف به للمبالغة، كالعدل، ثم سُمي به المالك؛ لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه. أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢٨/١)؛ شرح طيبة النشر للتويري (٩٢/١).

(٩) استغرب بعض الناس من كوني في الترجمة إلى الأردية أذكر الضمير العائد إلى الله تعالى بصيغة الجمع مع أن الواجب أن يذكر الله تعالى بصيغة تدل على الوجدانية؟، والجواب: أني استثقلت ذكر الله تعالى بغير صيغة التعظيم والتوقير، وأما أمر الوجدانية فمن المسلمات أنه ليس من الضروري الاحتياط في ذلك إلى هذه الدرجة، إضافة إلى أنه قد أطلق تعالى على نفسه صيغة الجمع في مواضع من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ [الدخان: ٣] ، نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ [الحجر: ٩]، وغيرها، وقال في آية في سياق الخطاب: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] ، ومما قالوا في تفسير الآية: إنه جمع الضمير للتعظيم. (التيان)، و«التيان» هذا كتاب مختصر يحتوي على تقارير ألفتها على ابن أخي المولوي: سعيد أحمد - رحمه الله - أثناء دراسته لبعض مواضع التفسير عليّ، فضبطها إلا أن المنية عاجلته قبل أن يستكملها. (منه)، ومما قالوه في ذلك: إن خطاب الله بلفظ الجمع في: (ارْجِعُونِ)، للتعظيم. انظر: الكشف (٢٠٢/٣)؛ فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (١٠/٢٢٦)؛ عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١/٥٢٢).

(١٠) معناه: نسألك التثبيت على ما هو حاصل، والإرشاد إلى ما هو ليس بحاصل، فأهل مقام الإسلام - العمل الظاهر - يطلبون الثبات على الإسلام، الذي هو حاصل، والترقي إلى مقام الإيثار الذي ليس بحاصل، وأهل الإيثار - العمل الباطن - يطلبون الثبات على الإيثار الذي هو حاصل، والترقي إلى مقام الإحسان الذي ليس بحاصل، وأهل مقام الإحسان يطلبون الثبات على الإحسان، والترقي إلى ما لا نهاية له من كشوفات العرفان، أرشدنا طريق السير فيك، لتمحو عنا ظلمات أحوالنا، وتُطَيَّبَ غواشي أبداننا، لنستضيء بنور قدسك فنراك بنورك، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (١/٦٢)، ويراجع من أجل آثار هذه المعاني ما ذكره حجة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالى في بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن وشرط من أعمال الصلاة. إحياء علوم الدين (١/١٦٧).

(١١) الإبانة عن معاني القراءات (ص ١١٨)، البدور الزاهرة (ص ١٣)، إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر (١/٣٦٣). (١٢) الملك بغير ألف: من السيادة والمُلْك أي المتصرف بالأمر والنهي في المأمورين. والمالك بالألف: من ملك المال أي: المتصرف في الأعيان المملوكة على أي وجه كان. انظر تفسير الراغب الأصفهاني (١/٥٦)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/٢٨)، التيسير في التفسير (١/١١٨)، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (١/٥٥).

(١٣) إشمام الصاد الزاي رواية خلف عن حمزة حيث وقعت، في كل القرآن، ومعناه: مزج الصاد بالزاي، وهي لغة قيس. لطائف الإشارات لفنون القراءات (٣/٣٥)، وفي الشاطبية رواية خلاد عن حمزة في الموضع الأول من الفاتحة. ينظر الإبانة عن معاني القراءات (ص ١١٨)، السبعة في القراءات (ص: ١٠٦)، التيسير للذاني (ص: ١٨).

(١٤) عن ابن كثير. الإبانة عن معاني القراءات (ص ١١٨)، السبعة في القراءات (ص: ١٠٥).

(١٥) من الاستراط بمعنى الابتلاع، كأن الطريق يستترط من يسلكه. تفسير القرطبي (١/١٤٨)، وسمي بذلك تصوراً أنه إما أن يتلعه سالكه أو يتلعه هو سالكه. ألا ترى أنه قيل: فلان أكلته المفازة إذا أضمرته أو أهلكته، وأكل المفازة إذا قطعها، وسمي لقباً لأنه يلتقمهم أو يلتقمونه، وذلك في معنى الملقوم. ينظر فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (١/٧٥٦).

(١٦) البحر المحيط في التفسير (١/٤٥)، وهي رواية عن حمزة وأبي عمرو. ينظر السبعة في القراءات (ص ١٠٥-١٠٦).

(١٧) الوافي في شرح الشاطبية (ص ٥١)، والأولى لحمزة. وينظر: الإقناع في القراءات السبع (ص ٢٩٧)؛ إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص ١٦٥).

(١٨) روح المعاني (١/٣٥)، ونقل الزركشي عن القاضي أبي بكر الباقلاني في الانتصار للقرآن أنه قال: "غير أنه لم يكن من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك قول، ولا ورد عنه أنه قال: اعلّموا أن قدر ما نزل بمكة كذا وبالمدينة كذا وفصله لهم. ولو كان ذلك

المغضوب عليهم، قال: اليهود، قلت: الضالين؟ قال: النصراني، قال الحافظ ابن حجر: «بإسناد حسن». فتح الباري (١٥٩/٨).

(٢١) يريد المصنّف نفسه.

(٢٢) «مُصدّق الشيء ما يصدقه أي يحققه ويدلّ على أنه أمر واقع، صيغة مبالغة كما يقال: فلان منحار ومطعام، وقد يكون مصدرًا واسم مكان وزمان كميعاد وميقات». عناية القاضي وكفاية الراضي (٣٥٢/١).

(٢٣) انظر الفروق اللغوية (ص ٢٠٩ ت محمد سليم).

(٢٤) روح المعاني ٩٤/١، «الهداية هي عند أهل الحق الدلالة على طريق من شأنه الإيصال سواء حصل الوصول بالفعل في وقت الاهتداء أو لم يحصل. وعند صاحب «الكشاف» لا بد من الإيصال البتة». الكليات (ص ٩٥٢).

قال ابن عاشور: «واختلف علماء الكلام في اعتبار قيد الإيصال إلى الخير في حقيقة الهداية.

فالجمهور على عدم اعتباره وأنها الدلالة على طريق الوصول سواء حصل الوصول أم لم يحصل وهو قول الأشاعرة وهو الحق، وذهب جماعة منهم الزمخشري إلى أن الهداية هي الدلالة مع الإيصال وإلا لما امتازت عن الضلالة أي حيث كان الله قادرا على أن يوصل من يهديه إلى ما هدها إليه، ومرجع الخلاف إلى اختلافهم في أصل آخر وهو أصل معنى رضى الله ومشيتته وإرادته وأمره، فأصحاب الأشعري اعتبروا الهداية التي هي من متعلق الأمر، والمعتزلة نظروا إلى الهداية التي هي من متعلق التكوين والخلق.

ولا خلاف في أن الهداية مع الوصول هي المطلوبة شرعًا من الهادي والمهدي مع أنه قد يحصل الخطأ للهادي وسوء القبول من المهدي، وهذا معنى ما اختار عبد الحكيم أنها موضوعة في الشرع للقدر المشترك لورودها في القرآن في كل منها». التحرير والتنوير (١٨٨/١).

وقيل تستعمل في المعنيين بحسب ما تعدى به بنفسها أو بحرف؛ لأنها «تتعدى بنفسها وبإلّا وباللام، ومعناها على الأول الإيصال، وعلى الثاني الدلالة وإراءة الطريق، ومحصله أن الهدى

منه لظهر وانتشر. وإنما لم يفعل؛ لأنه لم يؤمر به ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة... وإذا كان كذلك ساغ أن يختلف في بعض القرآن هل هو مكّي أو مدني وأن يعملوا في القول بذلك ضربا من الرأي والاجتهاد». البرهان ص ١٩١، وقال الواحدي: «اختلفوا فيها فعند الأكثرين هي مكية من أوائل ما نزل من القرآن، وعند مجاهد أن الفاتحة مدنية. قال الحسين بن الفضل: لكل عالم هفوة، وهذه بادرة من مجاهد؛ لأنه تفرد بهذا القول والعلماء على خلافه. ولم يكن الله ليمتنّ على رسوله بإيتائه فاتحة الكتاب وهو بمكة، ثم ينزلها بالمدينة ولا يسعنا القول بأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قام بمكة بضع عشرة سنة يصلي بلا فاتحة الكتاب هذا مما لا تقبله العقول!». أسباب النزول ت الحميدان (ص ٢٠)، ويقال: نصفها نزل بمكة ونصفها نزل بالمدينة. بحر العلوم (١٥/١)، وقال بعض العلماء: نزلت بمكة مرة، وبالمدينة مرة أخرى، فهي مكية مدنية، ولهذا السبب سماها الله تعالى بالسبع المثاني؛ لأنه ثنّى إنزالها، وإنما كان كذلك؛ مبالغة في تشريفها. الباب في علوم الكتاب (١٦٧/١).

(١٩) الإتيان في علوم القرآن (٥٧/٢).

(٢٠) الإتيان في علوم القرآن (٢٤٥/٤)، والحديث أخرجه الترمذي في سننه (٢١٦/٥) رقم (٣١٨٦) في التفسير، باب ومن سورة فاتحة الكتاب؛ وأحمد في مسنده (١٢٥/٣٢)؛ وابن حبان في التقاسيم والأنواع (٣٤٣/٤)؛ الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١٤٠/١٤) برقم (١٧١٥)، ولفظه عند الترمذي: «فإنّ اليهود مغضوبون عليهم، وإنّ النصراني ضالّ»، وقال الترمذي: «حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث سمالك»، وكذا في (تحفة الأشراف: ٧/٢٨٠/١٩٨٧٠)، وفي سنده عبّاد بن حُبَيْش الكوفي لم يوثقه غير ابن حبان، لكن له طرق عدة عند الطبري في تفسيره جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨٦/١) وغيره، وله شاهد من حديث أبي ذر، أخرجه ابن مردويه كما في تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٠/١) من طريق إبراهيم بن طهمان، عن بُدَيْل بن مَيْسرة، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن

بمعنى الهداية يتعدى إلى المفعول الثاني لفظاً أو تقريراً لنفسه أو بحرف الجر إلى واللام.

ومعنى المتعدي بنفسه الدلالة الموصلة إلى المطلوب، ولذا يسند إلى الله تعالى خاصة كقوله تعالى ﴿لنهديهم سبلنا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ومعنى المتعدي بحرف الجر الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب، فيسند تارة إلى النبي صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ [الشورى: ٥٢] وتارة إلى القرآن كقوله: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ [الإسراء: ٩] كما في عناية القاضى وكفاية الراضى (١/١٩٠).

وينظر دستور العلماء (٣/٣٢٧)، كشف اصطلاحات الفنون والعلوم (٢/١٧٤٠)، حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع (١/٢٢)، شرح العقائد مع المجموعة السنية (ص ٤٦٧) ط دار نور الصباح تركيا ط ١ عام ٢٠١٢.

قال الألويسى: «والكل من هذه الآراء غير خال عن خلل»، ثم قال: «ولهذا الخلل قال طائفة بالاشتراك، والبحث لغوي، لا دخل للاعتزال فيه». روح المعاني (١/٩٤).

(٢٥) «أي هو المستحق للمدح والثناء والشكر كله؛ لأن كل وجود شيء نعمة من نعمه فلا منعم إلا هو». روح البيان (٥/٢١٤)، كما يقال: الدار لزيد. معالم التنزيل - طيبة (١/٥٢)؛ المجيد في إعراب القرآن المجيد (ص ٣٨؛ فتاوى السبكي (١/٩)؛ روح البيان (٥/٢١٤)؛ لواضع الدرر في هتك أستار المختصر (١/٣٣).

«وللام الجارة اثنان وعشرون معنى: أحدها الاستحقاق وهي الواقعة بين معنى وذات نحو ﴿الحمد لله﴾، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (ص ٢٧٥)، وانظر ضياء السالك إلى أوضح المسالك (٢/٢٧٥)، اللامات (ص ١٢٥)، دراسات لأسلوب القرآن الكريم (٢/٤٣٤).

وقال الفخر الرازي «اللام في قوله ﴿الحمد لله﴾ يحتمل وجوها كثيرة: أحدها: الاختصاص اللائق كقولك الجئل للفرس. وثانيها: الملك كقولك: الدار لزيد. وثالثها: القدرة والاستيلاء كقولك: البلد للسلطان.

واللام في قولك: الحمد لله يحتمل هذه الوجوه الثلاثة، فإن

حملته على الاختصاص اللائق فمن المعلوم أنه لا يليق الحمد إلا به لغاية جلاله وكثرة فضله وإحسانه، وإن حملته على الملك فمعلوم أنه تعالى مالك للكل فوجب أن يملك منهم كونهم مشتغلين بحمده، وإن حملته على الاستيلاء والقدرة فالحق سبحانه وتعالى كذلك؛ لأنه واجب لذاته وما سواه ممكن لذاته، والواجب لذاته مستول على الممكن لذاته.

فالحمد لله بمعنى أن الحمد لا يليق إلا به وبمعنى أن الحمد ملكه وملكه، وبمعنى أنه هو المستولي على الكل والمستعلي على الكل». مفاتيح الغيب (١/١٩٢).

(٢٦) جاء ذكر هذا الشيخ أيضاً في الكوكب الدري على جامع الترمذي (١/٦٩): «عبد الرسول شارح عوامل النحو»، ولم أعرفه.

وقد يكون عبد الرسول ابن الطريحي النجفي الأصل الحلي المولد والمسكن الأديب الفاضل الشاعر النحوي الكاتب، كان بارعاً بالأدب والمعاني والبيان والعروض والنحو والأدب والشعر ويتعاني الكتابة مع خط حسن ونظم بديع ونثر حسن عجيب، كانت وفاته في بغداد سنة ست وثمانين ومئة وألف. سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (٣/٢٤) أو عبد الرسول بن محمد رضا الأنصاري المظفري. نحوي. له متن في النحو. معجم المؤلفين (٥/٢١٩) أو عبد الرسول بن أبي محمد عبد الوارث العثماني الحنفي الهندي الأحمدي صاحب كتاب: دستور العلماء، المطبوع بحيدر آباد الدكن في كتابه: معجم العلوم والحرف، لم يتم ولم يطبع، وهو من أعيان القرن الثاني عشر. كما في كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (تقديم/٣)

(٢٧) العوامل المئة في النحو للشيخ عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ. وكان من كبار أئمة العربية. تاريخ الإسلام (١٠/٣٣٢) ت بشار، وهو مشهور متداول أقبل عليه القراء والعلماء، وشرحه جماعة ذكر بعضهم حاجي خليفة في كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٥/٥١) ط الفرقان.

(٢٨) الكشف (١/٩).

تربية النفس في الإسلام

بقلم: الأستاذ / سيد سيد عبد الرزاق

أكثر من أن تحصى في هذا المجال، وعلى وجه العموم نستطيع أن نقول: إن كل ما يفعله الإنسان من مخالفات لأوامر الله وهو يعلم ذلك مرجعه إلى النفس الإنسانية بما تمليه على ضمير الإنسان ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٧٩). ويتصاعد أمر النفس بالسوء كلما وجدت صاحبها مجترا وراءها مسلسلاً بقيودها حتى يصل إلى أعلى درجات السوء والفحش، وهو سوء الظن بالله فيقول المولى عز وجل ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (آل عمران: ١٥٤)، ونستطيع أن نذكر من أمراض النفس على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر ما يلي:

١- الكسل والجبن:

والكسل يورث الغفلة ويميت الهمم والعزائم، ويبعث الإحباط والتأخر، فالإنسان الكسول عن أداء واجبه من قول أو عمل دائماً هو الإنسان الذليل

ورد في سورة يوسف قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٣).

فالنفس الإنسانية إذن قوية ومتسلطة في أمرها بالسوء حسب قول من أبدعها وهو بها عليم. والنفس لا تتوانى عن الزج بالإنسان في بحار الغي والضلال، وكلما تبعها الإنسان وسار خلفها ازداد غيًّا وضلالاً وبعداً عن رحمة الله، فتكون عاقبته وخيمة ومأواه جهنم، وبئس المصير ﴿أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (آل عمران: ١٦٢).

وهكذا يظل الإنسان سادراً في غيه حتى تملكه نفسه فيكون عبداً لها تتصرف في أمره كيف شاءت حينئذ يكون إنساناً مادياً بحثاً متقوقعا في ذاته لا يرى إلا المادة ولا يعبد إلا المادة والعياذ بالله.

من أمراض النفس:

والوساوس التي تمليها النفس على صاحبها

الخاضع الذي لا يستطيع أن يرفع رأسه بين أقرانه وعشيرته هو الخامل الضائع. وفوق ذلك كله يكون عاصياً لربه إذ يقول: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥)، والعمل هنا عام يشمل العمل بالدين وللدن، فالإنسان الذي يعمل للدنيا ويقصر في حق دينه أو يستهين بأمر من أموره إنسان مقصر في عمله ظالم لنفسه، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته». ويقول: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده» رواه البخاري.

أما الجبن فكثيراً ما أضاع على أصحابه فرص الفوز بنعم لا تحصى ولا تعد، فالذي يكره ميدان القتال في سبيل الله، أي نعيم فاته؟ وأي خلود تركه؟ رغبة منه في خلود الدنيا. والكسل والجبن من وساوس النفس رغبة منها في التلذذ والتنعم الزائف وحباً للخلود الدنيوي الفاني.

٢- الحقد والبغضاء:

وهما من أمراض النفس إشاراتاً لها على غيرها وتعبداً في محراب أنانيتهما وذاتيتهما، فالإنسان الحقود لا يرى إلا ذاته ولا يهتم سوى مصلحته الشخصية،

والمهم عنده أن يحقق مآربه ولو على رقاب الآخرين. فإذا رأى نعمة الله على إنسان تمنى زوالها عنه وأثر أن يأخذها لنفسه إن استطاع، وقد يرتكب أبشع الجرائم لتحقيق مطامع نفسه. ولعمري أين هذا من قول الله تبارك وتعالى في شأن المؤمنين: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ (الحشر: ٩-١٠)، ويقول الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» رواه البخاري ومسلم.

٣- الحرص المهلك:

ورغبة من النفس في التلذذ بالنعيم الفاني كثيراً ما تسوق صاحبها سوقاً موجهاً وتلح عليه إلحاحاً مرا لينال من المادة. والمادة جسدية ومالية فيميل إلى الأولى بالزنا، ومنه زنا البصر ويميل إلى الثانية بالسرقة أو باكتسابها عن طريق غير مشروع أو بكنزها ومنع زكاتها، وكل واحدة من هذه الجرائم عقوبتها تساوي الدنيا وما عليها يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. وهكذا ترى أن كل ما يقع فيه الإنسان من الأخطاء بسبب ما تمليه عليه نفسه من وساوس

نعوذ بالله منها ومن شرها.

فيخسر بذلك خسراً مبيناً في الدنيا والآخرة ومن وساوسها أيضاً: البخل وسوء الخلق والكذب والرياء والطمع والغرور والكبر، ومنها الميل إلى العبث واللغو وغير ذلك.

والمفروض على كل مسلم أن يروض نفسه ويرببها ويهذبها حتى تهدأ وتستكين، فيكون المرء عبداً لله خالصاً خاصةً في عصرنا المادي الذي تكالبت فيه الدنيا بأسرها على الإسلام؛ لأن الإنسان الذي يسير وراء مطامع نفسه ويتبع هواه ضائع متهافت لا يستطيع أن يدفع أعداءه عن نفسه ولا يمكن أبداً أن يكون أمة ناهضة.

ومن أراد أن يجاهد نفسه ويتغلب عليها فعليه بالقرآن فهو راحة القلوب والأبدان والعيون والأرواح، وهو دستور الدنيا والآخرة الذي يكمل للإنسان إنسانيته إذا اهتدى بهديه وسار على قيس من نوره ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٩).

ولا خلاص ولا نجاة للبشرية جمعاء إلا بالرجوع إلى ربهم الذي قدر فهدى، والعمل بالكتاب والسنة، فالقرآن يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: ٧)،

وفي سنته المطهرة وسيرته العطرة والتمثل بأخلاقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما هو كفيل بتربية النفس وكبح هواها.

تربية النفس بالصبر:

والذي يرنو ببصره إلى كتاب الله يرى أن الصبر هو أول الطريق لترويض النفس وتهذيبها على الأخلاق الحميدة، وهو الطريق الموصل إلى النجاة بعد الاستقامة، الطريق الذي يحتاج إلى عزيمة صادقة وإنسان قوي، فلقد أمر الله عباده المؤمنين بالصبر والتقوى حتى يتغلبوا على شدة الابتلاء في الأموال والأنفس وحتى يتحملوا شدة أذى اليهود والمشركين لهم فقال: ﴿لَتَبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٦). والصبر هو دليل الإيمان بالقضاء والقدر والإيمان بحكمة الله وإرادته، وهو لابد أن يظهر في حالة الشدة؛ لأن النفس أكثر ما تلح على صاحبها في هذه الحال، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمر بامرأة تبكي على ولدها فيقول لها: اتقي الله واصبري. فتستمر في بكائها وتقول: إنك لست تعرف ما بي - وكانت لم تعرفه - فلما عرفته ذهبته إليه لاستسماحه فقال لها: «إن الصبر عند الصدمة

الأولى» رواه أحمد. فالجزع في حال الشدة يعتبر عدم رضا بقضاء الله وقدره وعدم تسليم لإرادته؛ لذا كان الصبر عند الصدمة الأولى.

ونجد في الصبر العفة التي يتحلى بها المؤمن ويرفع بها عن كل الدنيا، والصوم ما هو إلا نوع من أنواع الصبر، وهو الصبر عن تناول اللذات مما يشتهي البطن والفرج، والنفس تدعو صاحبها إلى هذه الشهوات، فإن استجاب إليها أول مرة تردى فيها إلى ما لا نهاية.

وتقول الشاعرة:

صبرت عن اللذات حتى تولت

وألزمت نفسي صبرها فاستمرت

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى

فإن أطعمت تاقت وإلا تسلت

والقناعة والزهد فيما في أيدي الغير يمكن أن

يُدرج تحت أنواع الصبر على طمع النفس فيما في

أيدي الناس واستحواذها عليه حتى ولو بالسرقة،

والذي يردع نفسه عما في حوزة الناس حقيق بحب

الله وحب الناس، لذا عندما جاء رجل إلى الرسول

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال له: يا رسول الله، دلني على

عمل إذا أنا عملته أحبني الله وأحبني الناس، قال له

الرسول: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في

أيدي الناس يحبك الناس» رواه ابن ماجه والحاكم.

والزهد في الدنيا ليس معناه العزوف عن العمل أو عدم الاختلاط بالناس؛ بل معناه العزوف عن دناءة الدنيا ولذتها الفانية بالابتعاد عما يغضب الله والعمل بما يرضيه ويحبه. وعدم الغضب وكظم الغيظ ما هو إلا نوع من أنواع الصبر. والله يؤيد عباده الصابرين، وقد تكرر تأييده لهم في القرآن أكثر من مرة ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦)، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٦٦)، وقد بشر الله عباده الصابرين بعد ابتلائهم، وأسبغ عليهم نعمته وأفاض عليهم رحمته وذلك في قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٥٥-١٥٧). عليهم صلوات من ربهم ورحمة - أرايت تكريم الله لعباده الصابرين؟ - هذا هو الصبر وهؤلاء هم الصابرون.

تربية النفس بالمراقبة..

والصبر أول الطريق لتربية النفس، والمراقبة منتهاه، والمراقبة هي مراقبة الله عز وجل في السر والعلن، وهي خير رادع للنفس، وأمرها بالسوء؛ لذا قرن المولى عز وجل التقوى بالصبر في الآية

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٦). فالتقوى هنا هي المراقبة وهي الضمير الحي الذي يراقب ربه فيزن الأمور بميزان دقيق لا يبعد عن الجادة ولا يحدد عن الصواب. والمراقبة استحضار عظمة الله تعالى وقدرته في القلب - وذلك بالخوف من توعده ووعيده للعاصي والاستحياء منه إزاء ما أسبغ علينا من نعم ظاهرة وباطنة ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (النحل: ١٨) وكيف لنا بالعصيان وقد تفضل علينا بنعمه؟ وكيف نعصيه ولا حول لنا ولا قوة أمام قدرته وعظمته؟ ذلك هو الغي والضلال واتباع هوى النفس ونعوذ بالله منه.

وفي هذا المقام تحضرنى قصة رجل جاء إلى إبراهيم بن أدهم - رحمه الله - فقال له: يا أبا إسحاق، إني مسرف على نفسي فاجعل لي ما يكون لها زاجرا ومنقذا، فقال له: إن قبلت خمس خصال وقدرت عليها لم تضرك المعصية ولم توبقك لذة.

قال الرجل: هات يا أبا إسحاق، قال: الأولى إذا أردت أن تعصي الله عز وجل فلا تأكل رزقه، قال الرجل: فمن أين آكل وكل ما في الأرض رزقه؟ قال: يا هذا، أفيحسن بك أن تأكل رزقه وتعصيه؟ قال: لا. هات الثانية يا أبا إسحاق قال: وإذا أردت أن تعصي الله عز وجل فلا تسكن شيئا من بلاده،

قال: هذه أعظم من الأولى. يا هذا، إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له فأين أسكن؟ قال: أفيحسن بك أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه؟ قال: لا. هات الثالثة: قال: وإذا أردت أن تعصيه وأنت تحت رزقه وفي بلاده فانظر موضعا لا يراك فيه فاعصه فيه، قال: يا إبراهيم، ما هذا وهو يطلع على ما في السرائر؟ قال: أفيحسن بك أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه وهو يراك ويعلم ما تجاهر به؟ قال: لا. هات الرابعة قال: فإذا جاءك ملك الموت لقبض روحك فقل له: أخرني حتى أتوب توبة نصوحا وأعمل لله صالحا قال: لا يقبل مني، قال: يا هذا، أنت إذن لم تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب وتعلم أنه إذا جاءك لم يكن له تأخير، فكيف ترجو وجه الخلاص؟ قال الرجل: هات الخامسة، قال: إذا جاءك الزبانية يوم القيامة ليأخذوك إلى النار فلا تذهب معهم، قال: إنهم لا يدعونني ولا يقبلون مني، قال فكيف ترجو النجاة إذن، قال يا إبراهيم، حسبي.. حسبي أن استغفر الله وأتوب إليه، ولزم العبادة حتى فارق الدنيا.

وفقنا الله وسائر المسلمين إلى ما فيه الخير والهداية، ربنا لا تجعلنا من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

من الإعجاز البياني في القرآن الكريم

(٦ - المائة: ٥٥ - ٦٧)

بقلم: رئيس التحرير

بالركوع الخشوع. ذكره ابن عاشور، والبيضاوي، وأبو السعود، والآلوسي^(٣).

الرابع: ومن المفسرين من جعل ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ حالاً من ضمير ﴿يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾. وليس فيه معنى، إذ تؤتى الزكاة في حالة الركوع، وركبوا هذا المعنى على خبر تعددت رواياته وكلها ضعيفة. قال ابن كثير: وليس يصح شيء منها بالكلية لضعف أسانيدھا وجهالة رجاھا. وقال ابن عطية: وفي هذا القول، أي الرواية، نظر، قال: روى الحاكم وابن مردويه: جاء ابن سلام (أي عبد الله) ونفر من قومه الذين آمنوا (أي من اليهود) فشكوا للرسول صلى الله عليه وسلم بعد منازلهم ومنازلة اليهود لهم فنزلت ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ثم إن الرسول خرج إلى المسجد فبصر بسائل، فقال له: هل أعطاك أحد شيئاً، فقال: نعم خاتم فضة أعطانيه ذلك القائم يصلي، وأشار إلى علي، فكبر النبي ﷺ

١ - قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].
فإن قلت: ظاهر معنى ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ أنها عين معنى قوله: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، إذ المراد بـ﴿رَاكِعُونَ﴾ مصلّون لا آتون بالجزء من الصلاة المسمى بالركوع، فما فائدة إعادة ذكره؟

قلنا: الجواب من وجوه:

الأول: بأن المراد بالركوع ركوع النوافل، أي الذين يقيمون الصلوات الخمس المفروضة ويتقربون بالنوافل. ذكره ابن عاشور، والنسفي، والقرطبي^(١).

الثاني: المراد به ما تدل عليه الجملة الاسمية من الدوام والثبات، أي الذين يديمون إقامة الصلاة. ذكره ابن عاشور^(٢).

الثالث: ويجوز أن تجعل الجملة حالاً. ويراد

ونزلت هذه الآية، فتلاها رسول الله. «سلم ثم تلا هذه الآية» فأنشأ حسان رضي الله تعالى عنه يقول:

أبا حسن تغديك نفسي ومهجتي

وكل بطيء في الهدى ومسارع

أيذهب مدحيك المحبر ضائعاً

وما المدح في جنب الإله بضائع

فأنت الذي أعطيت إذ كنت راکعاً

زكاة فدتك النفس يا خير راکع

فأنزل فيك الله خير ولاية

وأثبتها أثنا كتاب الشرائع

قاله السدي. ذكره الطبري، والزمخشري، وابن

عاشور، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود،

والقرطبي، والآلوسي، والسمرقندي (٤).

وتعقبه ابن كثير فقال: فقد توهم بعض الناس

أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ

الزَّكَاةَ﴾ [الأعراف: ٦٥١] أي في حال ركوعهم،

ولو كان هذا كذلك، لكان دفع الزكاة في حال

الركوع أفضل من غيره؛ لأنه ممدوح، وليس الأمر

كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة

الفتوى، وحتى إن بعضهم ذكر في هذا أثراً عن علي

ابن أبي طالب أن هذه الآية نزلت فيه، وذلك أنه مر

به سائل في حال ركوعه فأعطاه خاتمه. وقال ابن أبي

حاتم: حدثنا الربيع بن سليمان المرادي، حدثنا

أيوب بن سويد عن عتبة بن أبي حكيم في قوله:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾

[المائدة: ٥٥] قال: هم المؤمنون وعلي بن أبي طالب،

وحدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا الفضل بن دكين

أبو نعيم الأحول، حدثنا موسى بن قيس الحضرمي

عن سلمة بن كهيل، قال: تصدق علي بخاتمه وهو

راکع، فنزلت ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ

ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ

رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، وقال ابن جرير: حدثني

الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا غالب بن عبيد

الله، سمعت مجاهدًا يقول في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ

اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة: ٥٥] الآية. نزلت في علي بن

أبي طالب، تصدق وهوراکع، وقال عبد الرزاق:

حدثنا عبد الوهاب بن مجاهد، عن أبيه، عن ابن

عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾

[المائدة: ٥٥] الآية، نزلت في علي بن أبي طالب،

عبد الوهاب بن مجاهد لا يحتج به.

وروى ابن مردويه من طريق سفیان الثوري،

عن أبي سنان، عن الضحاک، عن ابن عباس، قال:

السادس: وقيل: المؤمنون وقت نزول الآية كانوا بين مُتَمِّ للصلاة وبين راعٍ. ذكره القرطبي^(٧).
قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥٧]

فإن قلت: إن اليهود والنصارى مندرجون في عموم الكفار، فما فائدة ذكرهم؟

قلنا: الجواب من وجوه: الأول: وكرر ذكر اليهود والنصارى بقوله: من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، وإن كانوا مندرجين في عموم الكفار على سبيل النص على بعض أفراد العام لسبقهم في الذكر في الآيات قبل، ولأنه أوغل في الاستهزاء، وأبعد انقياداً للإسلام، إذ يزعمون أنهم على شريعة إلهية. ولذلك كان المؤمنون من المشركين في غاية الكثرة، والمؤمنون من اليهود والنصارى في غاية القلة. ذكره أبو حيان^(٨).

الثاني: وقيل: أريد بالكفار المشركون خاصة، ويدل عليه قراءة عبد الله: ومن الذين أشركوا. ذكره أبو حيان^(٩).

الثالث: قال ابن عطية: وفرت الآية بين

كان علي بن أبي طالب قائماً يصلي، فمر سائل وهو راعٍ، فأعطاه خاتمه، فنزلت ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة: ٥٥] الآية، الضحاك لم يلق ابن عباس. وروى ابن مردويه أيضاً من طريق محمد بن السائب الكلبي، وهو متروك، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد والناس يصلون بين راعٍ وساجد وقائم وقاعد، وإذا مسكين يسأل، فدخل رسول الله ﷺ، فقال: «أعطاك أحد شيئاً؟» قال: نعم. قال: «من؟» قال: ذلك الرجل القائم. قال «على أي حال أعطاكه؟» قال: وهو راعٍ، قال: «وذلك علي بن أبي طالب». قال، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك وهو يقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦] وهذا إسناد لا يُفرح به^(٥).

الخامس: قال الثعالبي: ثم وصفهم سبحانه بتكثير الركوع، وخُصَّ بالذكر؛ لكونه من أعظم أركان الصلاة، وهي هيئة تواضع، فعبر عن جميع الصلاة؛ كما قال سبحانه: ﴿وَالرُّكُوعَ السُّجُودَ﴾ [البقرة: ٥٢١] هذا هو الصحيح. وذكره

القرطبي^(٦).

الكفار وبين الذين أوتوا الكتاب، من حيث الغالب في اسم الكفر أن يقع على المشركين بالله إشراك عبادة الأوثان؛ لأنهم أبعد شأواً في الكفر. وقد قال: ﴿جَاهِدِ الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ففرق بينهم إرادة البيان. والجميع كفار، وكانوا عبدة الأوثان، هم كفار من كل جهة. وهذه الفرق تلحق بهم في حد الكفر، وتخالفهم في رتب. فأهل الكتاب يؤمنون بالله و ببعض الأنبياء، والمنافقون يؤمنون بألستهم انتهى^(١٠).

٢- قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩]

من البدهي هنا أن اليهود كلهم فساق فما فائدة تخصيص أكثرهم بالفسق؟

والجواب من وجهين:

الأول: يعني أن أكثركم إنما يقولون ما يقولون، ويفعلون ما يفعلون طلباً للرياسة والجاه وأخذ الرشوة والتقرب إلى الملوك، فهم في دينكم فساق لا عدول، فإن الكافر والمبتدع قد يكون عدلاً دينه، وقد يكون فاسقاً دينه، ومعلوم أن كلهم ما

كانوا كذلك فلذلك خص أكثرهم بهذا الحكم. ذكره الرازي^(١١).

الثاني: ذكر أكثرهم لئلا يظن أن من آمن منهم داخل في ذلك. ذكره الرازي^(١٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٢].

فإن قيل: من البدهي أن «الإثم» يتناول جميع المعاصي والمنهيات، فما فائدة ذكر العدوان والأكل بعده؟

الجواب: لفظ الإثم يتناول جميع المعاصي والمنهيات، فلما ذكر الله تعالى بعده العدوان وأكل السحت دلّ هذا على أن هذين النوعين أعظم أنواع المعصية والإثم. ذكره الرازي، والبيضاوي، وأبو السعود، والآلوسي^(١٣).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَقْدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي

الْأَرْضُ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾
[المائدة: ٦٤].

فإن قلت: إن الله تعالى حكى عن اليهود أنهم قالوا ذلك، ولا شك في أن الله تعالى صادق في كل ما أخبر عنه، ونرى اليهود مطبقين متفقين على أنا لا نقول ذلك ولا نعتقد البتة، وأيضاً المذهب الذي يحكى عن العقلاء لا بدّ وأن يكون معلوم البطلان بضرورة العقل، والقول بأن يد الله مغلولة قول باطل ببديهة العقل، لأن قولنا: (الله) اسم لموجود قديم، وقادر على خلق العالم وإيجاده وتكوينه، وهذا الموجود يمتنع أن تكون يده مغلولة وقدرته مقيدة وقاصرة، وإلا فكيف يمكنه مع القدرة الناقصة حفظ العالم وتديره؟

الجواب من وجوه:

الأول: لعلّ القوم إنما قالوا هذا على سبيل الإلزام، فإنهم لما سمعوا قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (البقرة: ٢٤٥) قالوا: لو احتاج إلى القرض لكان فقيراً عاجزاً، فلما حكموا بأن الإله الذي يستقرض شيئاً من عباده فقير مغلول اليدين، لا جرم حكى الله عنهم هذا الكلام. ذكره الرازي، وابن عاشور، وأبو حيان^(١٤).

الثاني: لعلّ القوم لما رأوا أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم في غاية الشدة والفقر والحاجة قالوا على سبيل السخرية والاستهزاء: إن إله محمد فقير مغلول اليد، فلما قالوا ذلك حكى الله عنهم هذا الكلام. ذكره الرازي^(١٥).

الثالث: قال المفسرون: اليهود كانوا أكثر الناس مالا وثروة، فلما بعث الله محمداً وكذبوا به ضيق الله عليهم المعيشة فعند ذلك قالت اليهود: يد الله مغلولة، أي مقبوضة عن العطاء على جهة الصفة بالبخل، والجاهل إذا وقع في البلاء والشدة والمحنة يقول مثل هذه الألفاظ. ذكره الرازي، وابن عاشور، وأبو حيان، وأبو السعود^(١٦).

الرابع: لعلّه كان فيهم من كان على مذهب الفلسفة، وهو أنه تعالى واجب لذاته، وأن حدوث الحوادث عنه لا يمكن إلا على نهج واحد وسنن واحد، وأنه تعالى غير قادر على إحداث الحوادث على غير الوجوه التي عليها تقع، فعبروا عن عدم الاقتدار على التغيير والتبديل بغل اليد. ذكره الرازي^(١٧).

الخامس: قال بعضهم: المراد هو قول اليهود:

إن الله لا يعذبنا إلا بقدر الأيام التي عبدنا العجل فيها، إلا أنهم عبروا عن كونه تعالى غير معذب لهم إلا في هذا القدر من الزمان بهذه العبارة الفاسدة، واستوجبوا اللعن بسبب فساد العبارة وعدم رعاية الأدب، وهذا قول الحسن فثبت أن هذه الحكاية صحيحة على كل هذه الوجوه والله أعلم. ذكره الرازي^(١٨).

٥- قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [المائدة: ٦٥].

فإن قيل: الإيمان وحده سبب مستقل باقتضاء تكفير السيئات وإعطاء الحسنات، فلم ضم إليه شرط التقوى؟

قلنا: الجواب من وجوه:

الأول: المراد كونه آتياً بالإيمان لغرض التقوى والطاعة، لا لغرض آخر من الأغراض العاجلة مثل ما يفعله المنافقون. ذكره الرازي^(١٩).

الثاني: وقرنوا إيمانهم بالتقوى التي هي الشريطة في الفوز بالإيمان ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ﴾ تلك السيئات ولم نؤاخذهم بها ﴿وَلَا دُخْلَنَّهُمْ﴾ مع المسلمين الجنة. وفيه إعلام بعظم معاصي اليهود

والنصارى وكثرة سيئاتهم، ودلالة على سعة رحمة الله تعالى وفتح باب التوبة على كل عاص وإن عظمت معاصيه وبلغت مبالغ سيئات اليهود والنصارى، وأن الإيمان لا ينجي ولا يسعد إلا مشفوعاً بالتقوى، كما قال الحسن: هذا العمود فأين الإطناب. ذكره الزمخشري^(٢٠).

٦- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

فإن قلت: إن قوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ معناه فإن لم تبلغ رسالته فما بلغت رسالته، فأبي فائدة في هذا الكلام؟

الأول: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ وإن لم تبلغ جميعه كما أمرتك. ﴿فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ فما أدت شيئاً منها؛ لأن كتمان بعضها يضيع ما أدى منها كترك بعض أركان الصلاة، فإن غرض الدعوة ينتقض به، أو فكأنك ما بلغت شيئاً منها كقوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ من حيث إن كتمان البعض والكل سواء في الشفاعة واستجلاب العقاب. قالت عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها): «مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا

كَتَمَ شَيْئًا مِنَ الْوَحْيِ، فَقَدْ أَعْظَمَ الْفَرِيَةَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٧٦]. ذكره الطبري، والزمخشري، والرازي، والبيضاوي، و الثعالبي، والبغوي، وأبو حيان، والنسفي، وابن عاشور، وأبو السعود، والآلوسي، و القرطبي، وابن كثير^(٢١).

وتعقبه الرازي فقال: وهذا الجواب عندي ضعيف؛ لأن من أتى بالبعض وترك البعض لو قيل: إنه ترك الكل لكان كذبًا ولو قيل أيضًا: إن مقدار الجرم في ترك البعض مثل مقدار الجرم في ترك الكل فهو أيضًا محال ممتنع، فسقط هذا الجواب^(٢٢).

وكان أباحيان لم يعجبه رد الرازي فقال: وما ضعف به جواب الجمهور لا يضعف به، لأنه قال: فإن قيل: إن ترك الكل كان كاذبًا، ولم يقولوا ذلك إنما قالوا: إن بعضها ليس أولى بالأداء من بعض، فإن لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعًا. كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لا يؤمن بأكملها لإدلاء كل منها بما يدلي به غيرها، وكونها لذلك في حكم شيء واحد، والشيء الواحد لا يكون مبلغًا غير مبلغ مؤمنًا به غير مؤمن، فصار ذلك التبليغ للبعض غير معتد به، وأما ما ذكر من أن مقدار

الجرم في ترك البعض مثل الجرم في ترك الكل محال ممتنع، فلا استحالة فيه. والله تعالى أن يرتب على الذنب اليسير العذاب العظيم، وله تعالى أن يعفو عن الذنب العظيم، ويؤاخذ بالذنب الحقير: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾، وقد ظهر ذلك في ترتيب العقوبات في الأحكام الشرعية، حيث رتب على من أخذ شيئًا بالاختفاء والتستر، قطع اليد مع رد ما أخذه أو قيمته، ورتب على من أخذ شيئًا بالقهر والغلبة والغصب رد ذلك الشيء أو قيمته إن فقد دون قطع اليد^(٢٣).

الثاني: قال الرازي: والأصح عندي أن يقال:

إن هذا خرج على قانون قوله:

أنا أبو النجم وشعري شعري

ومعناه أن شعري قد بلغ في الكمال والفصاحة إلى حيث متى قيل فيه: إنه شعري فقد انتهى مدحه إلى الغاية التي لا يمكن أن يزداد عليها، فهذا الكلام يفيد المبالغة التامة من هذا الوجه، فكذا ههنا: فإن لم تبلغ تنبيهًا على غاية التهديد والوعيد. والله أعلم^(٢٤).

وذكر الآلوسي جواب الجمهور ثم قال: ومما

ذكرنا في تفسير الشريعة يعلم أن لا اتحاد بين الشرط

والجزاء، ومن ادّعاه بناءً على أن المآل «إن لم تبلغ الرسالة لم تبلغ الرسالة - جعله نظير: «أنا أبو النجم وشعري شعري» حيث جعل فيه الخبر عين المبتدأ بلا مزيد في اللفظ، وأراد - وشعري شعري - المشهور بلاغته والمستفيض فصاحته، ولكنه أخبر بالسكوت عن هذه الصفات التي بها تحصل الفائدة أنها من لوازم شعره في أفهام الناس السامعين لاشتغاره بها، وأنه غني عن ذكرها لشهرتها وذيعاها، وكذلك - كما قال ابن المنير - أريد في الآية لأن عدم تبليغ الرسالة أمر معلوم عند الناس مستقر في الأفهام أنه عظيم شنيع ينقم على مرتكبه، ألا ترى أن عدم نشر العلم من العالم أمر فظيع فكيف كتمان الرسالة من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاستغنى عن ذكر الزيادات التي يتفاوت بها الشرط والجزاء للصوقها بالجزاء في الأفهام، وأن كل من سمع عدم تبليغ الرسالة فهم ما وراءه من الوعيد والتهديد، وحسن هذا الأسلوب في الكتاب العزيز بذكر الشرط عامًا حيث قال سبحانه: ﴿وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ﴾ ولم يقل: وإن لم تبلغ الرسالة فما بلغت الرسالة ليتغيرا لفظًا وإن اتحدا معنى، وهذا أحسن رونقًا وأظهر طلاوة من تكرار اللفظ الواحد في الشرط والجزاء، وهذه الذروة

انحط عنها أبو النجم بذكر المبتدأ بلفظ الخبر، وحق له أن تتضاءل فصاحته عند فصاحة المعجز فلا معاب عليه في ذلك^(٢٥).

الثالث: أن يراد: فإن لم تفعل فلك ما يوجهه كتمان الوحي كله من العقاب فوضع السبب موضع المسبب، ويعضده قوله عليه الصلاة والسلام: «بعثني الله برسالاته فضقت بها ذرعًا، فأوحى الله إليّ: إن لم تبلغ رسالاتي عذبتك. وضمن لي العصمة فقويت» وقال ابن عطية: أي إن تركت شيئًا فكأنك قد تركت الكل، وصار ما بلغت غير معتد به. فمعنى: وإن لم تفعل، وإن لم تستوف. ونحو هذا قول الشاعر:

سئلت فلم تبخل ولم تعط نائلا

فسيان لا ذمّ عليك ولا حمد
أي إن لم تعط ما يعد نائلاً وألا تكاذب البيت.
ذكره الزمخشري، وأبو حيان، وأبو السعود،
والألوسي^(٢٦).

الرابع: وقيل: إن المراد إن تركت تبليغ ما أنزل إليك حكم عليك بأنك لم تبلغ أصلاً. ذكره
الألوسي^(٢٧).

الهوامش:

- (١٨) الرازي ٣٩٣/١٢.
- (١٩) الرازي ٣٩٨/١٢.
- (٢٠) الزمخشري في تفسير الآية.
- (٢١) الرازي ٣٩٩/١٢؛ الطبري ١٩٨/٦؛ البيضاوي ٣٤٧/٢؛ الثعالبي في تفسير الآية؛ البغوي في تفسير الآية؛ الزمخشري في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ النسفي في تفسير الآية؛ ابن عاشور في تفسير الآية؛ أبو السعود ٣٣٨/٢؛ ٥٥/٣؛ الآلوسي ١٧٢/٦.
- (٢) ابن عاشور في تفسير الآية.
- (٣) ابن عاشور في تفسير الآية؛ البيضاوي ٣٣٨/٢؛ أبو السعود ٣٣٨/٢؛ ٥٥/٣؛ الآلوسي ١٧٢/٦.
- (٤) الطبري ١٨٦/٦؛ الزمخشري في تفسير الآية؛ ابن عاشور في تفسير الآية؛ النسفي في تفسير الآية؛ البيضاوي ٣٣٨/٢؛ أبو السعود ٥٥/٣؛ القرطبي ٢٢١/٦؛ الآلوسي ١٧٢/٦؛ السمرقندي في تفسيره ٤٠١/١.
- (٥) ابن كثير ١٢٥/٣.
- (٦) الثعالبي في تفسير الآية؛ القرطبي ٢٢١/٦.
- (٧) القرطبي ٢٢١/٦.
- (٨) أبوحيان في تفسير الآية.
- (٩) أبوحيان في تفسير الآية.
- (١٠) أبوحيان في تفسير الآية.
- (١١) الرازي ٣٨٩/١٢.
- (١٢) الرازي ٣٨٩/١٢.
- (١٣) الرازي ٢٩٢/١٢؛ البيضاوي ٣٤٤/٢؛ أبو السعود ٦١/٣؛ الآلوسي ١٧٩/٦.
- (١٤) الرازي ٣٩٣/١٢؛ ابن عاشور في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية.
- (١٥) الرازي ٣٩٣/١٢.
- (١٦) الرازي ٣٩٣/١٢؛ ابن عاشور في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ أبو السعود ٦١/٣.
- (١٧) الرازي ٣٩٣/١٢.
- (٢٢) الرازي ٣٩٩/١٢.
- (٢٣) أبو حيان في تفسير الآية.
- (٢٤) الرازي ٣٩٩/١٢.
- (٢٥) الآلوسي ١٩٩/٦.
- (٢٦) الزمخشري في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ أبو السعود ٦١/٣؛ الآلوسي ١٩٩/٦.
- وحديث: بعثني الله..... قال الآلوسي (١٩٩/٦): أخرجه إسحاق بن راهويه في «مسنده» من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، وأخرجه أبو الشيخ وابن حبان في تفسيره من مرسل الحسن أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بعثني الله تعالى...».
- (٢٧) الآلوسي ١٩٩/٦.

عندما يشهد التاريخ

(من التوراة والزبور والإنجيل إلى القرآن الكريم — في ضوء أبحاث
الدكتور محمد حميد الله والدكتور محمد مصطفى الأعظمي)

بقلم: الأستاذ محفوظ أحمد القاسمي - بهيرة(*)

وتدوينه وحفظه في إطار تأريخي شامل بينما انتقل
الدكتور الأعظمي خطوة أخرى، فوضع المخطوطات
القرآنية القديمة أمام الباحث، وجعلها مادةً للمقارنة
البصرية المباشرة. وإذاً صحيح أن نقول: إن حميد الله
رحمه الله فتح لنا باب التاريخ، فإن الأعظمي رحمه الله
أدخلنا من ذلك الباب إلى عالم المخطوطات، وجعل
الوثيقة التاريخية نفسها تتحدث.

الكتب السماوية السابقة، من الوحي إلى النصوص المعاصرة
قبل القرآن الكريم أنزل الله تعالى على أنبيائه
كتباً وصحفاً لهداية البشر. فأنزل التوراة على موسى
عليه السلام، والزبور على داود عليه السلام،
والإنجيل على عيسى عليه السلام. والإيمان بهذه
الكتب في أصولها المنزلة جزء من العقيدة الإسلامية
غير أنه من المهم هنا التمييز بين الكتب الأصلية
التي أنزلها الله تعالى وبين المجموعات الكتابية
الموجودة اليوم بأسمائها المعروفة. فالعهد القديم

الإيمان بكون القرآن الكريم كلام الله وأنه آخر
كتبه المنزلة وهو محفوظ إلى قيام الساعة من أصول
العقيدة الإسلامية. وقد أعلن القرآن الكريم عن
هذا الحفظ بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا
لَهُ وَلَحَفِظُونَا﴾ (الحجر: ٩).

غير أن قضية حفظ القرآن الكريم لم تبق في
العصر الحديث مجرد مسألة عقيدة؛ بل أصبحت
كذلك موضوعاً للبحث التأريخي والنقد النصي
ودراسة المخطوطات ولا سيما بعد أن أثار عدد من
المستشرقين والباحثين الغربيين (Orientalists) أسئلة
متعددة حول تأريخ القرآن وتدوينه وانتقال نصه.

وهنا تبرز أهمية أعمال عالين جليلين من علماء
المسلمين في العصر الحديث الدكتور محمد حميد الله
رحمه الله والدكتور محمد مصطفى الأعظمي القاسمي
رحمه الله. فقد تناول الدكتور حميد الله تأريخ القرآن

(*) الرياض بالمملكة العربية السعودية.

(Old Testament) ليس كتابًا واحدًا بالمعنى البسيط، وإنما هو مجموعة من الكتب والنصوص التي مرت بتاريخ طويل من النقل والتدوين والتحرير، وكذلك العهد الجديد (New Testament) ليس هو الإنجيل الذي أنزله الله تعالى على عيسى عليه السلام بالمعنى الإسلامي، وإنما يشتمل على أربعة أناجيل وأعمال الرسل والرسائل وسفر الرؤيا، وهي مجموعة من النصوص التي تشكلت وتناقلت عبر مراحل تاريخية مختلفة. ولهذا فإن دراسة تاريخ النصوص الكتابية نفسها تكشف عن مسار طويل ومعقد من الكتابة والنقل والتدوين والتقليد النصي، وقد ظل تاريخ هذه النصوص موضوعًا للبحث والنقاش في الأوساط العلمية الغربية والمسيحية نفسها.

وهنا ينبغي أن نفهم قضية التحريف فهمًا علميًا دقيقًا، فالمقصود في التصور الإسلامي ليس بالضرورة أن كل كلمة من النصوص الموجودة اليوم باطلة، وإنما هي أن الكتب الأصلية التي أنزلها الله تعالى لم تبق محفوظة في صورتها الأولى على النحو الذي حفظ به القرآن الكريم. فالقرآن نفسه يذكر صورًا متعددة من تعامل بعض أهل الكتاب مع الوحي من كتمان بعض الحق ونسيان بعضه وتغيير

الكلام عن مواضعه. ومن هنا يصبح تأريخ القرآن الكريم أكثر وضوحًا عندما يوضع في إطار مقارنة مع التأريخ النصي للكتب السابقة.

الرحلة التاريخية لتدوين القرآن ود. حميد الله رحمه الله
تناول الدكتور محمد حميد الله رحمه الله في كتابه «خطبات بهاولپور»، ولا سيما في المحاضرة الأولى المتعلقة بتاريخ القرآن الكريم، مراحل نزول القرآن وكتابته وحفظه وجمعه وتدوينه. فالقرآن الكريم لم يكن في عهد النبي ﷺ محفوظًا في الصدور فقط؛ بل كان يُكتب كذلك، وكان عدد من الصحابة رضي الله عنهم يقومون بكتابة الوحي، وهكذا اجتمع في حفظ القرآن منذ البداية، الحفظ في الصدور والكتابة في السطور.

وبعد وفاة رسول الله ﷺ، أدت معركة اليمامة إلى استشهاد عدد من الصحابة حفاظ القرآن الكريم، فبرزت الحاجة إلى جمع القرآن في صحف جامعة، وكان ذلك في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه حيث أسندت هذه المهمة إلى زيد بن ثابت رضي الله عنه، فجمع القرآن اعتمادًا على المواد المكتوبة وما ثبت لدى الصحابة الحفاظ، ثم انتقلت هذه الصحف إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم إلى أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها، وهكذا لم

يكن القرآن في هذه المرحلة نصًا مجهول المصدر؛ بل كان محفوظًا في الصدور ومكتوبًا في المواد المختلفة، ثم جُمع في صحف محفوظة لدى الصحابة.

توحيد المصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه

جاءت المرحلة التالية في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه. ومع اتساع الدولة الإسلامية ودخول شعوب وأمم جديدة في الإسلام ظهرت اختلافات في بعض وجوه القراءة واللهجات، وأصبح من الممكن أن يؤدي ذلك إلى النزاع بين المسلمين، فنبّه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه الخليفة عثمان رضي الله عنه إلى خطورة الأمر. فاستعان عثمان رضي الله عنه بالمصحف المحفوظة عند حفصة رضي الله عنها، وشكلت لجنة من الصحابة كان في مقدمتها زيد بن ثابت رضي الله عنه لإعداد نسخ معيارية من المصحف وإرسالها إلى الأمصار والمدن المختلفة.

التأكيد على نقطة مهمة

لم يكن عثمان رضي الله عنه يجمع القرآن من جديد، وإنما كان يوحد المصاحف على النص القرآني المعروف والمحفوظ، ويضع حدًا للنزاع الناشئ عن اختلاف وجوه القراءة والكتابة، فكان عمله

رضي الله عنه عملاً توحيدياً لا تأسيسياً. لم ينشئ نصًا جديدًا وإنما وحد الأمة على مصحف معياري مستند إلى ما كان محفوظًا ومجموعًا من قبل.

هل تؤيد المخطوطات القديمة هذه الرواية التاريخية؟

هنا تكتسب كتابات الدكتور محمد مصطفى الأعظمي رحمه الله أهمية خاصة ولا سيما كتابه: «النص القرآني الخالد عبر العصور» Ageless Qur'an Timeless Text بالإنجليزي. فتميزت هذه الدراسة أنها لا تكتفي بالروايات التاريخية والنقول النظرية؛ بل تجعل المخطوطات القرآنية القديمة محورًا أساسيًا للبحث. ومن أبرز ما يميز منهج المؤلف ما يمكن تسميته: منهج الإثبات البصري (Visual Proof Method) وفكرة هذا المنهج بسيطة في صورتها، عميقة في دلالتها: ضع المخطوطات القرآنية من عصور مختلفة بعضها إلى جانب بعض، ثم انظر بنفسك: كيف انتقل النص عبر القرون. وهنا لا تبقى الحجة مجرد كلام ينقله الباحث عن غيره؛ بل تصبح المخطوطة نفسها وثيقة تاريخية حاضرة أمام القارئ.

سورة الإسراء، رحلة بصرية عبر القرون

اختار الدكتور الأعظمي رحمه الله سورة الإسراء نموذجًا لدراسته المقارنة، وعرض نصها

بالضرورة وجود اختلاف في القرآن المقروء أو في بنية النص القرآني. ومن أهم الأمور التي ينبغي أن يراعيها الباحث في المخطوطات القديمة ألا يخلط بين الاختلاف الإملائي (Orthographic Variation) وبين الاختلاف النصي (Textual Variation).

هل تخلو المخطوطات القديمة من الأخطاء؟

من النقاط المهمة في عمل الدكتور الأعظمي رحمه الله أنه لا يحاول أن يجعل كل كاتب للمخطوطات معصوماً من الخطأ. فالإنسان يكتب وقد يسبق قلمه أو يسقط منه حرف أو يقع في خطأ يسير. ولهذا نجد في بعض المخطوطات القديمة أخطاء كتابية محدودة؛ لكن السؤال الحقيقي ليس «هل وقع الكاتب في خطأ؟» بل هل أدت هذه الأخطاء البشرية المحدودة إلى تغيير النص القرآني المتوارث؟ والشواهد التي يعرضها المؤلف تشير إلى أن مثل هذه الأخطاء الكتابية الجزئية لا تغير هوية النص القرآني ولا تمس استمراره التاريخي. وهنا تظهر قاعدة علمية مهمة «وجود خطأ ناسخ في مخطوطة معينة لا يعني أن النص القرآني الأصلي قد تحرف». فالخطأ البشري في النسخ شيء وتغير النص المتوارث شيء آخر تماماً.

من خلال عدد من المخطوطات القرآنية القديمة التي تنتمي إلى عصور مختلفة. وتضم الدراسة نحو ثمانية عشر مصحفاً قرآنياً قديماً تمتد عبر فترات تاريخية مختلفة بحيث يمكن الباحث أن يقارن النص القرآني كما ظهر في مخطوطات متعددة وفي أماكن وأزمنة مختلفة. وتكمن أهمية هذا الأسلوب في أنه يجعل القارئ لا يعتمد فقط على كلام الباحث؛ بل يستطيع أن يرى الشواهد بنفسه. فبدل أن يقول لنا: «كان النص محفوظاً». يعرض أمامنا الوثائق القديمة وكأنه يقول: «انظروا بأنفسكم».

١٥٥٩ كلمة و١٩٦ موضع اختلاف

من الجوانب اللافتة في هذه الدراسة أن المؤلف قارن ١٥٥٩ كلمة من سورة الإسراء في المخطوطات المختلفة، وظهر في المقارنة اختلاف في الرسم أو الإملاء في ١٩٦ موضعاً؛ لكن لا بد هنا من التمييز العلمي الدقيق بين اختلاف الرسم والكتابة واختلاف النص نفسه. فالرسم العربي القديم كان يسمح بوجوه متعددة في كتابة بعض الكلمات مثل حذف الألف أو إثباتها أو بعض الاختلافات في رسم الألف المقصورة والممدودة ونحو ذلك. ولهذا فإن وجود اختلاف إملائي في مخطوطتين لا يعني

القرآن والنصوص الكتابية، مقارنة تاريخية

عند نضع تأريخ التوراة والزبور والإنجيل في مقابل تأريخ القرآن تظهر أمامنا مسألة جديدة بالتأمل، وهي لماذا بقي القرآن بهذا القدر من الاستقرار النصي عبر القرون؟ والجواب لا يمكن حصره في عامل واحد. فحفظ القرآن ارتبط منذ البداية بمجموعة من الوسائل المتكاملة:

* حفظه في صدور الصحابة.

* كتابته في حياة النبي ﷺ.

* المراجعة والتلقي المباشر.

* جمعه في صحف في عهد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* توحيد المصاحف في عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* استمرار التلاوة الجماعية في الأمة.

* وجود سلسلة واسعة من الحفاظ في كل عصر.

* وجود المخطوطات القرآنية القديمة.

لقد كان حفظ القرآن قائماً على منظومة متعددة الطبقات لا على وسيلة واحدة. وهذا أمر بالغ الأهمية؛ لأنه يعني أن أي خطأ فردي في وسيلة من وسائل النقل كان يمكن أن يُكتشف ويُصحح من خلال الوسائل الأخرى. وهنا يكمن أحد أسرار الاستقرار النصي للقرآن الكريم.

أسئلة المستشرقين وجواب الأعظمي

في العصر الحديث أثار بعض المستشرقين أسئلة حول تأريخ القرآن وتدوينه ومخطوطاته وقراءاته؛ لكن قيمة الدكتور الأعظمي رحمه الله لا تكمن في أنه رد على هذه الأسئلة بردود عاطفية؛ بل في أنه حاول أن يعيد النقاش إلى ميدان الوثيقة والشاهد. فمنهجيه يقول بصورة غير مباشرة: إذا قيل: إن النص القرآني تغير فلننظر إلى المخطوطات القديمة. وإذا قيل: إن القرآن لم يكن ثابتاً في القرون الأولى فلنقارن بين مخطوطات تلك القرون. وإذا قيل: إن الرواية الإسلامية لا تؤيدها الشواهد المادية فلنضع الشواهد المادية أمامنا. وهنا تتحول المخطوطة من ورقة قديمة صامتة إلى وثيقة تاريخية تتحدث.

من قول «القرآن محفوظ» إلى سؤال «كيف حفظ»

ظل المسلمون عبر القرون يؤمنون بأن القرآن الكريم محفوظ؛ لكن البحث العلمي الحديث يفرض على الباحث سؤالاً آخر: كيف تم هذا الحفظ؟ وما الشواهد التاريخية التي يمكن أن نراها ونفحصها؟ وهنا تكمن أهمية كتاب الأعظمي رحمه الله. فهو لا يكتفي بأن يقول: «القرآن محفوظ»؛ بل يدعو القارئ إلى النظر في المخطوطات ومقارنة النصوص

وملاحظة استمرار النص القرآني عبر أزمنة مختلفة، وهذا هو جوهر منهج الإثبات البصري.

من حميد الله إلى الأعظمي، امتداد علمي جميل

هناك صلة علمية واضحة بين المشروعين، وإن اختلفت طبيعة كل منهما. فالدكتور حميد الله رحمه الله يبين لنا: كيف نزل القرآن، وكيف كتب، وكيف حُفظ، وكيف جُمع، وكيف توحدت المصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه. أما الدكتور الأعظمي رحمه الله فيطرح سؤالاً آخر: هل يمكن اختبار هذا التأريخ من خلال الشواهد المادية القديمة؟ ثم يقدم المخطوطات القرآنية القديمة للمقارنة. ولهذا يمكن تلخيص العلاقة بين العاملين في عبارة موجزة: حميد الله رحمه الله روى لنا تأريخ القرآن، والأعظمي رحمه الله عرض لنا آثار ذلك التأريخ. الأول ركز على المسار التأريخي، والثاني أضاف إليه الدليل المخطوطي البصري. وهنا تزداد أهمية الجمع بين العاملين في دراسة قضية حفظ القرآن.

هل تمثل هذه الدراسة نهاية البحث؟

بالطبع لا! فالمخطوطات القرآنية موزعة اليوم بين المكتبات والمتاحف والجامعات والمجموعات الخاصة في أنحاء مختلفة من العالم، ولا يزال كثير

منها بحاجة إلى التصوير الرقمي والفهرسة والدراسة المقارنة. ومن هنا يمكن النظر إلى عمل الدكتور الأعظمي رحمه الله على أنه بداية لطريق بحثي واسع أكثر من كونه نهاية البحث. والحاجة قائمة إلى:

* جمع المزيد من المخطوطات القرآنية القديمة.

* إتاحة صورها الرقمية عالية الجودة.

* دراسة السور المختلفة دراسة مقارنة.

* التمييز بين اختلاف الرسم واختلاف النص.

* تصنيف الفروق المخطوطية تصنيفاً علمياً دقيقاً.

* عرض النتائج على الباحثين المسلمين وغير المسلمين بالمعايير العلمية نفسها.

فكلما اتسع نطاق البحث وازدادت الشواهد المنشورة والمتاحة للباحثين ازدادت قوة الصورة التاريخية التي يمكن تكوينها عن انتقال النص القرآني.

الخاتمة، عندما يشهد التاريخ

إن قضية حفظ القرآن الكريم ليست مجرد قضية إيمانية وإن كان الإيمان بحفظه أصلاً راسخاً في

الرحلة العلمية، فقد مرت القرون وتغيرت الدول وتبدلت الأجيال وتنوعت أساليب الكتابة وانتقلت المخطوطات من بلد إلى بلد؛ لكن عندما توضع تلك الأوراق القديمة جنباً إلى جنب وعندما يقارن الباحث نصوصها يظهر أمامه قدر كبير من الاستقرار والاستمرار في النص القرآني. وهنا تتوقف الكلمات وتتكلم المخطوطات ويصمت الجدل، وعندما تتكلم المخطوطات يشهد التاريخ وعندما يشهد التاريخ لم يعد الدليل مجرد رواية تُحكى؛ بل أصبح أثراً يُرى.

المراجع والمصادر

- (١) د. محمد حميد الله، خطبات بهاولپور.
- (٢) د. محمد مصطفى الأعظمي، النص القرآني الخالد عبر العصور.
- (٣) د. محمد مصطفى الأعظمي، The History of the Qur'anic Text: From Revelation to Compilation
- (٤) د. محمد مصطفى الأعظمي، Studies in Early Hadith Literature
- (٥) محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن.
- (٦) جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن.
- (٧) مناع القطان، مباحث في علوم القرآن.
- (٨) عبد الصبور شاهين، تأريخ القرآن.
- (٩) John Burton, The Collection of the Qur'an
- (١٠) Arthur Jeffery, Materials for the History of the Text of the Qur'an

عقيدة المسلم؛ بل إن لهذا الاعتقاد كذلك تاريخاً طويلاً من الحفظ والكتابة والتلقي والجمع والتداول والمخطوطات. أما التوراة والزبور والإنجيل، فالإيمان بأصولها المنزلة جزء من عقيدة الإسلام؛ لكن الكتب والنصوص الموجودة اليوم باسم العهد القديم والعهد الجديد (Old & New Testaments) مرت بمراحل تاريخية وتدوينية معقدة، ولا يمكن ببساطة مساواتها بالكتب الأصلية التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه. ومن هنا تظهر خصوصية القرآن الكريم. فقد اجتمعت في حفظه منذ عصر النبوة وسائل متعددة: الحفظ الشفهي، والكتابة، والتلقي الجماعي، وجمع الصحف، وتوحيد المصاحف، واستمرار التلاوة، وانتشار الحفظ، وبقاء المخطوطات القديمة. وقد تناول الدكتور محمد حميد الله رحمه الله هذا المسار التاريخي وشرح مراحل تدوين القرآن وحفظه، ثم جاء الدكتور محمد مصطفى الأعظمي رحمه الله ليضيف إلى هذا البناء التاريخي بعداً آخر هو البعد المخطوطي والبصري. فإذا كان حميد الله رحمه الله قد شرح لنا تأريخ حفظ القرآن فإن الأعظمي رحمه الله حاول أن يجعلنا نرى آثار هذا الحفظ بأعيننا. وهنا تكمن روعة هذه

من محاسن صحبة أهل الفضل

بقلم: الأستاذ حازم خنفر

ولصحبة أهل الفضل محاسن منها:

١ - الذكر الجميل؛ فإن الملازم لأهل الفضل لا بد أن يناله شيء من ذكر جميل وشأن عظيم؛ قال ابن كثير في «تفسيره» عند قوله تعالى: ﴿وَكَلَّبُهُمْ بِسِطْرِ ذَرَأَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ (الكهف: ١٨): «وشملت كلبهم ببركتهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذا فائدة صحبة الأخيار؛ فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن».

قلت: وهذا الذكر والشأن قد خلص إلى كلب لازم أهل الفضل، فما بال من لازمهم واقتدى بصلاحهم؟!

٢ - ومما جاء عن السلف في محاسن صحبة الأخيار: الإعانة على طلب العلم؛ كما أخرج الخطيب البغدادي في كتابه «الجامع لأخلاق الراوي» عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «يا طالب العلم؛ إن العلم ذو فضائل كثيرة، فرأسه: التواضع، وعينه: البراءة من الحسد...» ثم ذكر أمورًا، وختم قائلًا: ورفيقه: صحبة الأخيار؛ أي:

ورفيق العلم: صحبة أهل الخير والفضل.

وقد ذكر عن عبد الله بن أحمد بن حنبل أنه قال: لما قدم أبو زرعة نزل عند أبي، فكان كثير المذاكرة له، سمعت أبي يومًا يقول: ما صليت غير الفرض؛ استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي.

٣ - ومما ذكر أهل الحكمة في محاسن صحبة الأخيار: وراثة الخير؛ قال ابن المقفع في كتابه «كليلة ودمنة»:

«إذا غدرت بصاحبك فلا شك أنك بمن سواه أغدر، وأنه إذا صاحب أحد صاحبًا وغدر بمن سواه فقد علم صاحبه أنه ليس عنده للمودة موضع، فلا شيء أضيع من مودة تمنح من لا وفاء له، وحباء يصطنع عند من لا شكر له، وأدب يحمل إلى من لا يتأدب به ولا يسمعه، وسر يستودع من لا يحفظه؛ فإن صحبة الأخيار تورث الخير، وإن صحبة الأشرار تورث الشر؛ كالريح إذا مرت بالطيب حملت طيبًا، وإذا مرت بالتنن حملت نتنًا».

٤ - ومن محاسن صحبة الأخيار - أيضًا -:

صون القلب والنفس عن الشيطان ووسوسته؛ قال ابن الحاج في كتابه «المدخل»: «واعلم أن الشيطان إذا نظر إلى العبد مريدًا، صادقًا، مخلصًا، مداومًا، عارفًا بنفسه، عارفًا بهواه، معاندًا لهما، حذرًا، مستعدًا، عارفًا بفقره إلى الله - تعالى -؛ قال له: (إن هذا الأمر لا يصلح إلا بالأعوان عليه)، والشيطان على الواحد أقوى، وهو من الاثنين أبعد، فجالس إخوانك، وذاكرهم، وأخبرهم بما ينوبك في عملك من نفسك وهواك ومن عدوك؛ فإنهم يدلونك ويعينونك».

قلت: ولهذا كان أهل الفضل يحثون على طلب الصحبة - دون إكثار كما سيأتي -، ويعدون فقدان صاحب أمرًا جللًا:

فقد روي عن أبي القاسم عبد الله البغوي أنه قال: سمعت الإمام أحمد بن حنبل يقول: إذا مات أصدقاء الرجل ذل.

وقال سفيان بن عيينة: قال لي أيوب: إنه ليبلغني موت الرجل من إخواني فكأنما سقط عضو من أعضائي.

وقال الفرزدق:

يمضي أخوك فلا تلقى له خلفًا

والمال بعد ذهاب المال مكتسب

وقال آخر:

لكل شيء عدمته عوض

ومالفقد الصديق من عوض

وعن علي: أعجز الناس: من عجز عن اكتساب الإخوان، وأعجز منه: من ضيع من ظفر به منهم.

وقال المغيرة بن شعبة: التارك للإخوان متروك.

وقال الخليل بن أحمد: الرجل بلا صديق كاليمين بلا شمال.

وقال علي لابنه الحسن: يا بني، الغريب: من ليس له حبيب.

وقال ابن المعتز: من اتخذ إخوانًا كانوا له أعوانًا.

وقال ابن الجلاء: من لا إخوان له فلا عيش له.

وقالت الحكماء: من لم يرغب بثلاث بلي بست: من لم يرغب في الإخوان بلي بالعداوة والخذلان، ومن لم يرغب في السلامة بلي بالشدائد والامتهان، ومن لم يرغب في المعروف بلي بالندامة والخسران.

ومن درر ما دون في الأسفار في فضل الصحبة، ما روي عن عمر بن الخطاب أنه قال: لقاء

الإخوان جلاء الأحرار.

وقال جعفر بن محمد: مناغة الصديق أعبت بالروح وأندى على الفؤاد من مغازلة المعشوق؛ لأنك تفزع بحديث المعشوق إلى الصديق، ولا تفزع بحديث الصديق إلى المعشوق.

وقيل لأعرابي: أي شيء أمتع؟ قال: ممازحة محب، ومحادثة صديق.

وقال بعض الأدباء: أفضل الذخائر: أخ وفي. وروي عن محمد بن واسع أنه قيل له: أي العمل في الدنيا أفضل؟ قال: صحبة الأصحاب ومحادثة الإخوان إذا اصطحبوا على البر والتقوى. وقال بعض البلغاء: صديق مساعد: عضد وساعد.

وقيل: الصديق إنسان هو أنت، إلا أنه غيرك. وقيل - أيضًا -: رب صديق أود من شقيق. وقيل لمعاوية: أيما أحب إليك؟ قال: صديق يحبني إلى الناس.

وقيل لأعرابي: أب الصديق أنت أنس أم بالعشيق؟ فقال: يا هذا، الصديق لكل شيء؛ للجد والهزل، وللقليل والكثير، وهو روضة العقل وغدير الروح، أما العشيق؛ فإنما هو للعين، وفي الولوع به إفراط مزجور عنه، فأين هذا من ذاك؟!

مراتب الصحبة وأسبابها

واعلم أن الصحبة لا تتعلق بالأقران فقط، وإنما تكون - أيضًا - في معاشرة الأكابر والأصاغر، وقد بينها أبو عبد الرحمن - محمد بن الحسين - السلمي في كتابه «آداب الصحبة»:

فأما معاشرة الأكابر؛ فتكون بالحرمة والخدمة والقيام بأشغالهم. وأما الأقران؛ فبالنصيحة وبذل الموجود.

وأما الأصاغر؛ فبالإرشاد والتأديب. وعليه: فمهما كان وجه المعاشرة فإنه متعلق برتب لا تقوم الصحبة إلا بها، وقد ذكرها الماوردي في «أدب الدنيا والدين»:

فمنها: ما يكون مكتسبًا من غير قصد واختيار بسبب المماثلة والاتفاق بين صاحبين في أمور شتى. ومنها: ما يكون مكتسبًا بقصد ونية بسبب الرغبة والحاجة.

أما ما يكون مكتسبًا بسبب الاتفاق؛ فهي: التجانس، ثم المواصل، ثم المؤانسة، ثم المصافاة، ثم المودة، ثم المحبة، ثم الاستحسان.

١ - فأولها: التجانس، ويراد به: مماثلة المتصاحبين ومشاكلتهم وائتلافهم في جنس أو صفة.

قال الماوردي: «فإن قوي التجانس قوي الائتلاف به، وإن ضعف كان ضعيفاً ما لم تحدث علة أخرى يقوى بها الائتلاف، وإنما كان ذلك كذلك لأن الائتلاف بالتشاكل، والتشاكل بالتجانس، فإذا عدم التجانس من وجه انتفى التشاكل من وجه، ومع انتفاء التشاكل يعدم الائتلاف، فثبت أن التجانس - وإن تنوع - أصل الإيحاء وقاعدة الائتلاف».

قلت: يريد أن الحالة بين اثنين - من جنس أو صفة - كلما كانت شديدة المماثلة والمشاكلية فإنها باعثة على شدة الائتلاف والاتفاق بينه ما، وإن كانت ضعيفةً ضعف الائتلاف بينهما.

ونبه على أن ذلك ليس بقاعدة مطردة، وإنما قد تأتي المماثلة في أمر آخر غير الأمر الذي عدت المشاكلة فيه؛ فإن للإنسان صفات عديدة وطباعاً مختلفة قد تعدم المماثلة بين الاثنين في واحدة منها، إلا أنها تجانسا في صفة أخرى غير الأولى، فتكون الصحبة والأخوة بسبب الثانية لا الأولى.

ولهذا كان خلق الصاحب دليلاً على خلق صاحبه، فلو لا شبه خلقهما لما تصاحبا:

فقد أخرج البخاري عن عائشة - معلقاً -، ومسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال: «الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

نقل الحافظ ابن حجر في كتابه «فتح الباري» عن الخطابي قوله: «يحتمل أن يكون إشارةً إلى معنى التشاكل في الخير والشر والصالح والفساد، وأن الخير من الناس يحن إلى شكله، والشرير نظير ذلك؛ يميل إلى نظيره، فتعارف الأرواح يقع بحسب الطباع التي جبلت عليها من خير وشر».

ونقل عن ابن الجوزي قوله: «ويستفاد من هذا الحديث أن الإنسان إذا وجد من نفسه نفرةً ممن له فضيلة أو صلاح فينبغي أن يبحث عن المقتضى ليسعى في إزالته حتى يتخلص من الوصف المذموم، وكذلك القول في عكسه».

وأخرج أحمد والترمذي وأبو داود عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل».

قال أهل العلم: أي: على عادة صاحبه وطريقته وسيرته، فمن رضي دينه وخلقه خالقه، ومن لا: تجنبه؛ فإن الطباع سارقة.

وروى ابن أبي الدنيا في كتابه «الإخوان» عن عبد الله بن مسعود أنه قال: اعتبروا الناس بأخداهم؛ فإن الرجل يخادن من يعجبه نحوه.

وقال بعض الحكماء: اعرف أخاك بأخيه قبلك.

وقال بعض الأدباء: يظن بالمرء ما يظن بقرينه.
وقال الأوزاعي: الصاحب للصاحب كالرقعة في الثوب؛ إذا لم تكن مثله شانتة.

ومنه قول الشاعر:

وما صاحب الإنسان إلا كرقعة

على ثوبه فليتخذ مشاكلا

ولبعضهم:

فلا تحتقر نفسي وأنت خليلها

فكل امرئ يصبو إلى من يشاكل

وقال عدي بن زيد:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه

فكل قرين بالمقارن يقتدي

ثم ذكر الماوردي أربع خصال معتبرة في

إخائهم بعد المجانسة - التي هي أصل الاتفاق -،

فقال: «فالخصلة الأولى: عقل موفور يهدي إلى

مراشد الأمور... والخصلة الثانية: الدين الواقف

بصاحبه على الخيرات؛ فإن تارك الدين عدو لنفسه،

فكيف يرجى منه مودة غيره؟!... والخصلة الثالثة:

أن يكون محمود الأخلاق مرضي الأفعال، مؤثراً

للخير آمراً به، كارهاً للشر ناهياً عنه؛ فإن مودة

الشرير تكسب الأعداء وتفسد الأخلاق...

والخصلة الرابعة: أن يكون من كل واحد منهما ميل

إلى صاحبه، ورغبة في مؤاخاته؛ فإن ذلك أوكد لحال

المؤاخاة وأمد لأسباب المصافاة؛ إذ ليس كل

مطلوب إليه طالباً، ولا كل مرغوب إليه راغباً.

٢- ثم المواصلة، وهي مرحلة ما بعد

التشاكل، وقد قال بعض الحكماء: بحسن تشاكل

الإخوان يلبث التواصل. وقصد بها: الاجتماع

والمداومة على ذلك، وهي مرتبة نتجت من المرتبة

الأولى؛ وهي: الاتفاق والاتلاف.

ولا يراد بهذه المواصلة: بلوغ المحبة والود

بينهما؛ وإنما هي مرتبة يترقب بها كل منهما الآخر

للتثبت من وجود الاتفاق، فلا يكون هذا إلا

بالاجتماع والمواصلة.

٣- ثم المؤانسة، وهي شعور بشيء من الأمان

والانبساط، فينطلق اللسان، حتى يفضي ذلك إلى

الانشرحاح والسرور والتأنس.

٤- ثم المصافاة، ويراد بها: الإخلاص فيما

سيكون من مودة وإخاء؛ قال الماوردي: «وسببها:

خلوص النية».

٥- ثم المودة، قال بعض الحكماء: من جاد لك

بمودته فقد جعلك عديل نفسه.

روى أحمد وأبو داود والترمذي عن المقدم بن معدي كرب، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه» - والله تعالى أعلم -.

والأصل في المحبة أمران: الأول: أن تكون محبته لله. والثاني: أن لا يفرط في هذه المحبة. أما الأول؛ فقد سئل الإمام أحمد بن حنبل عنه، فقال: هو أن لا يحبه لطمع الدنيا. وقد جاء في ذلك أحاديث؛ منها:

ما أخرجه البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن أنس، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار».

وما أخرجه عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله...» وذكر منهم: رجلين تحابا في الله، اجتمعا على ذلك وتفرقا.

وعند مسلم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله - تبارك وتعالى - يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا

قال الماوردي: «وهذه الرتبة هي أدنى الكمال في أحوال الإخاء، وما قبلها أسباب تعود إليها، فإن اقترن بها المعاضدة فهي الصداقة».

قلت: يريد أن الصحبة تبدأ من هذه المرتبة - وهي حصول المودة -، أما ما قبلها من مراتب فهي مقدمات لبلوغ هذه المودة، وأشار كذلك إلى أن هذه المرتبة قد تبلغ مبلغ الصداقة إذا كان من كل منهما للآخر النصر والعون.

٦ - ثم المحبة، قال الماوردي: «وسببها: الاستحسان».

وقد فرق أهل اللغة بين المودة والمحبة؛ قال أبو هلال العسكري في «الفروق اللغوية»: «والمحبة لا تقع إلا على المستقبل، وبه يظهر الفرق بين المحبة والمودة؛ لأن المودة قد تكون بمعنى التمني؛ كقولك: (أود لو قدم زيد)؛ بمعنى: (أتمنى قدومه)، ولا يجوز: (أحب لو قدم زيد)».

قلت: ولعل الماوردي أراد بترتبة المودة: المحبة غير المعلنة؛ فإنها تكون في أول ائتمان كل منهما للآخر، ولذلك قال: «وسببها: الثقة»؛ أي: والسبب الذي أفضى إلى هذه المودة هو الثقة بينهما، أما رتبة المحبة؛ فقد جعل سببها الاستحسان، ويريد بهذا: التعدي في كتمان هذا الحب إلى إظهاره، وقد

ظل إلا ظلي».

وعند أحمد والترمذي، عن معاذ، عن النبي

ﷺ، قال: «قال الله: المتحابون في جلالي لهم منابر

من نور، يغبطهم النبيون والشهداء».

ولأبي داود هذا المعنى من حديث عمر، وفيه:

«هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم، ولا

أموال يتعاطونها».

ولمسلم من حديث أبي هريرة، أن الملك قال

للذي زار أخاه: إني رسول الله إليك بأن الله قد

أحبك كما أحبته فيه.

فمما ينبغي أن تكون فيه الصحبة والمعاشرة

هو: الحب من أجل حظوظ أخروية لا دنيوية.

قال بلال بن سعد: أخ لك كلما لقيك ذكرك -

برؤيته - ربك: خير لك من أخ كلما لقيك وضع في

كفك دينارًا.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في «مجموع

فتاويه»: «ومن أحب أحدًا لغير الله كان ضرر

أصدقائه عليه أعظم من ضرر أعدائه؛ فإن أعداءه

غايتهم أن يحولوا بينه وبين هذا المحبوب الدنيوي،

والحيلولة بينه وبينه رحمة في حقه، وأصدقائه

يساعدونه على نفي تلك الرحمة وذهابها عنه...

وكلاهما ضرر عليه؛ قال - تعالى - ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ

أَتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ

بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (البقرة: ١٦٦).

وقال أبو حامد في «الإحياء»: «وذلك كمن

يحب أستاذه وشيخه لأنه يتوصل به إلى تحصيل

العلم وتحسين العمل، ومقصوده من العلم والعمل

هو: الفوز في الآخرة... وكذلك من يحب تلميذه

لأنه يتلقف منه العلم وينال بواسطته رتبة التعليم

ويرقى به إلى درجة التعظيم في ملكوت السماء».

وأما الأمر الثاني؛ فهو عدم الإفراط في المحبة،

قال الماوردي: «فإن الإفراط داع إلى التقصير».

وقد روى الترمذي عن أبي هريرة أن رسول

الله ﷺ قال: «أحب حبيبك هونًا ما؛

عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك

هونًا ما؛ عسى أن يكون حبيبك يومًا ما».

قال ابن الأثير في «النهاية في غريب الحديث»:

«يعني: لا تسرف في الحب والبغض؛ فعسى أن

يصير الحبيب بغيضًا والبغض حبيبًا، فلا تكون قد

أسرفت في الحب فتندم، ولا في البغض فتستحيي».

ونقل المناوي في كتابه «فيض القدير» عن ابن

العربي قوله: «معناه: أن القلوب بين أصبعين من

أصابع الرحمن؛ فقد يعود الحبيب بغيضًا وعكسه،

فإذا أمكنته من نفسك حال الحب وعاد بغيضًا كان

لمعالم مضارك أجدر؛ لما اطلع منك حال الحب بما
أفضيت إليه من الأسرار».

ومن ذلك: ما روي عن علي، أنه قال: ابذل
لصديقك كل المروءة، ولا تبذل له كل الطمأنينة،
وأعطه من نفسك كل المواساة، ولا تفرض إليه بكل
الأسرار.

وقال بعض السلف: إياك وكره الإخوان؛ فإنه
لا يؤذك إلا من تعرف.

وقال عمر بن الخطاب: لا يكن حبك كلفاً،
ولا بغضك تلفاً.

وقال الحسن البصري: أحبوا هوناً وبغضوا
هوناً؛ فقد أفرط قوم في حب قوم فهلكوا، وأفرط
قوم في بغض قوم فهلكوا.

وأنشد أحمد بن يحيى:

فهونك في حب وبغض فربما

يرى جانب من صاحب بعد جانب
وأخرج الرافعي في كتابه «التدوين في أخبار
قزوين» عن أبي إسحاق السبيعي، أنه قال: كان علي
بن أبي طالب - رضي الله عنه - يذاكر أصحابه
وجلسه في استعمال حسن الأدب بقوله:

وكن معدناً للخير واصفح عن الأذى

فإنك راء ما عملت وسامع

وأحب إذا أحببت حبا مقارباً

فإنك لا تدري متى أنت نازع

وأبغض إذا أبغضت بغضاً مقارباً

فإنك لا تدري متى الحب راجع

٧- ثم الاستحسان، فإن كان في الجمال الباطن

فهو: الإعظام، وإن كان في الجمال الظاهر فهو:
العشق، وقد يكون الاستحسان إعظاماً وعشقا في
آن واحد.

أما ما تكون الصحبة فيه بطريق القصد
والاختيار؛ فهو على وجهين:

١- الأول: الرغبة، قال الماوردي: «فأما
الرغبة؛ فهي: أن تظهر من الإنسان فضائل تبعث
على إخائه، ويتوسم بجميل يدعو إلى اصطفائه،
وهذه الحالة أقوى من التي بعدها لظهور الصفات
المطلوبة من غير تكلف لطلبها، وإنما يخاف عليها
من الاغترار بالتصنع لها، فليس كل من أظهر الخير
كان من أهله، ولا كل من تخلق بالحسنى كانت من
طبعه».

٢- والثاني: الحاجة؛ قال الماوردي: «وأما
الفاقة؛ فهي أن يفتقر الإنسان لوحدة انفراده ومهانة
وحده إلى اصطفاء من يأنس بمؤاخاته ويثق بنصرته
ومولاته».

القصص القرآنية

بقلم: الأستاذ محمد عزة دروزة

أهل الكتاب وغيرهم المتداولة مماثلاً أو زائداً أو ناقصاً أو مبيناً لما جاء في القرآن. أم ليس موجوداً فيها مما يتصل بالأمم والأنبياء الذين وردت أسماؤهم فيها مثل قصص إبراهيم عليه السلام المتعددة مع قومه، وتسخير الجن والريح لسليمان عليه السلام، ومائدة المسيح عليه السلام أو مما يتصل بغيرهم من الأمم والبلاد العربية وأنبيائها مما لم يرد أسماؤهم فيها مثل قصص ثمود وعاد وسبأ وتبع وشعيب ولقمان.

من ذلك هذه الآيات التي لها أمثال أخرى:

١- ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ^(١) نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (التوبة: ٧٠).

٢- ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾

تشغل القصص حيزاً كبيراً في القرآن الكريم. وقد شغلت نتيجة لذلك حيزاً كبيراً في كتب التفسير. وتشغل دائماً أذهان قارئ القرآن من مسلمين وغير مسلمين ولا سيما الذين يأخذونها على موضوعيتها التاريخية، فيكون منهم المتوسع، ومنهم المستنبط، ومنهم المتسائل، ومنهم الحائر، ومنهم المتحفظ أو المشكك.

وهذا بحث تناول هذه المسألة بأسلوب ومدى آخرين، نرجو أن يكون في نشره الفائدة إن شاء الله.

أولاً: في القرآن شواهد وقرائن عديدة تدل على أن ما ورد فيه من قصص وأخبار الأمم السابقة وأحداثها وأنبيائها بما في ذلك معجزات الأنبياء عليهم السلام، وما وقع على الأمم الجاحدة من عذاب الله ونكاله لم يكن غريباً عن سامعي القرآن لأول مرة إجمالاً سماعاً أو مشاهدةً آثاراً أو اقتباساً وتناقلاً. وسواء منه ما هو موجود في أسفار وكتب

(الأنبياء: ٥).

(الصفات: ١٣٣-١٣٨).

ولقد جاء في سورة القلم التي هي ثانية سورة في ترتيب النزول هذه الآيات:

﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ٤٨ لَوْلَا أَن تَدْرِكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ٤٩ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ وَجَعَلَهُ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (القلم: ٤٨-٥٠).

فالاحتفاء بهذه الإشارة الخاطفة إلى قصة يونس ونعته بصاحب الحوت في هذه السورة المبكرة جداً في النزول دليل قاطع على أن هذه القصة لم تكن مجهولة عند النبي صلى الله عليه وسلم والسامعين قبل البعثة. وإذا كانت سور أخرى نزلت بعد واحتوت تفصيلاً أكثر عن القصة مثل ما جاء في آيات سورة الصفات ١٣٩-١٤٨ فالمتبادر أن لذلك حكمة سامية؛ ولكنها لا تنقض الدليل من دون ريب. وهذه القصة واردة بتفصيل في سفر يونان بن متى من أسفار العهد القديم المتداول اليوم في أوساط الكتابيين. وهناك حديث رواه مسلم وأبو داود عن النبي صلى الله عليه وسلم جاء فيه: «ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى» ونسبه إلى أبيه. واسم الأب لم يرد في القرآن. وإنما في سفر يونان

٣- ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ٤٢ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ٤٣ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٤ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مَعْظَلَةٌ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ٤٥ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٢-٤٦).

٤- ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ (الفرقان: ٤٠).

٥- ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّن مَّسْكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (العنكبوت: ٣٨).

٦- ﴿وَإِنَّ لُوطًا لِّمَن الْمُرْسَلِينَ ١٣٢ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ١٣٤ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ١٣٥ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ١٣٦ وَإِنكُم لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ١٣٧ وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٤).

بيئة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المشركين العرب قبل البعثة.

ومثل هذا يقال أيضًا في أولى إشارة إلى قصة صالح عليه السلام وقوم ثمود وناقته في سورة الشمس التي هي من السور المبكرة جدًا في النزول وهي: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۖ إِذِ انْتَبَعَتْ أَشْقَاهَا ۖ﴾ ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ (الشمس: ١١-١٤).

فالإشارة المقتضبة في سورة مبكرة جدًا دليل على أن سامعي القرآن يعرفون القصة، وهي قصة عريية. ومنازل ثمود وآثارهم في حدود الحجاز الشمالية مما يسمى اليوم مدائن صالح. ولا ريب في أن قصة النبي صالح عليه السلام وقومه وناقته ودمارهم من القصص التي كان يتداولها أهل بيئة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيلًا بعد جيل فجاءت أولى الإشارات إليها مقتضبة لأنهم يعرفونها. وفي سورة العنكبوت آية ٣٨ تذكرهم بأنهم يعرفون ذلك معرفة مشاهدة وسامع معا وهي: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ ۖ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾.

بصيغة (متاى) وفي سيرة ابن هشام حديث يذكر أن النبي حينما ذهب إلى الطائف قدم له غلام طبقًا عليه قطف عنب، فسمى أولًا باسم الله، ثم أكل، فأكب الغلام على يده يقبلها ويقول: إن هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد. فسأله النبي من أي بلد هو، فقال له: إنه من نينوى فقال له: بلد يونس بن متى، فقال له: ومن أين عرفت يونس بن متى، فقال له: هو نبي وأنا نبي مثله. ونينوى لم تذكر في القرآن وإنما ذكرت في السفر المذكور.

ومثل هذا يقال في الإشارة الخاطفة المقتضبة في سورة المزمل ثالث سورة في ترتيب النزول إلى فرعون وهي: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ (المزمل: ١٥-١٦).

فإن قصص موسى وفرعون مما كان معروفًا متداولًا في بيئة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل البعثة ومبثوثًا بسعة في أسفار العهد القديم التي كان يتداولها أهل الكتاب فيها، وفي آية سورة القصص هذه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ (القصص: ٤٨) دليل قاطع على أن هذه القصص كانت معروفة عند أهل

ومثل هذا يقال أيضًا في الإشارات المقتضبة الواردة في آيات سورة (ص) ١٢ و ١٣ وسورة (ق) ١٢-١٤ وسورة (الفجر) ٦-١٤ إلى الأقوام حيث يصح القول بجزم: إن هذه الإشارات دليل على أن السامعين للقرآن من العرب يسمعون أسماء أقوام يعرفون قصصها قبل أن ينزل القرآن الكريم.

ثانيًا: إن القصص القرآنية لم ترد في القرآن لذاتها وموضوعها التأريخ وإنما وردت للعظة والتذكير والإفحام والإلزام والتنديد والوعيد والتسلية والتثبيت، وبكلمة أخرى قصدت الرسالة المحمدية، وهذا ظاهر في أسلوب جميع القصص القرآنية الذي لم يكن سردًا تأريخيًا، والذي تخلله الوعظ والإرشاد والتبشير والإنذار؛ بل الذي جاء سبكه وعظًا وإرشادًا وتبشيرًا وإنذارًا وتنبهًا وتذكيرًا. ثم في سياق إيراد القصص حيث تورد على الأعم الأغلب عقب التذكير والتنديد والتسلية والتطمين والموعظة وحكاية مواقف الكفار وعنادهم وحجاجهم أو بين يدي ذلك. ثم في تكرار القصص في سور عديدة وبأساليب وصيغ متنوعة ومختلفة بعض الشيء لسبب تنوع وتجدد المواقف النبوية دعوة وحجاجًا وتنديدًا وبيانًا وعظةً وتذكيرًا

وإنذارًا وتبشيرًا سنين طويلة. وتجاه فئات مختلفة مما هو مبثوث في مختلف السور وبخاصة المكية، وفي غنى عن التمثيل مع بروز القاسم المشترك الذي يجمع بين هذه الصيغ وهو الأسلوب من جهة، وقصد العظة والتذكير والمثل من جهة، ولكون ما جاء فيها مما ليس قريبًا كليًا أو جزئيًا عن السامعين من جهة.

ونلفت نظر القارئ إلى آيات سورة الحج ٤١-٤٦ وآية سورة العنكبوت ٣٨ وآيات سورة الصافات ١٣٢-١٣٨ التي أوردناها قبل ثم إلى آية سورة الأنعام هذه ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأنعام: ٣٤) حيث يبدو هذا الهدف صريحًا قاطعًا وماثلاً أمامه. وفي سورة يوسف هذه الآية بعد تفصيل قصة يوسف وإخوته التي تخللها حكم ومواعظ وعبر عديدة ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف: ١١١) حيث يبدو الهدف المذكور صريحًا وقاطعًا أيضًا كما يبدو فيها دليل أو قرينة على

النقطة الأولى.

أما كون القصص لم ترد لذاتها وموضوعها التاريخي فإنه بالإضافة إلى أن هذا متمثل في تكرارها وتنوع صيغها وأساليبها وهدف العظة والعبرة البارز عليها فإنه متمثل في كون ما جاء فيها ليس فيه سرد للتأريخ والأحداث، وفيه كثير من الثغرات أو الحلقات المفقودة من ناحية الموضوعية التاريخية، مما هو ملموح فيها حتى في ما قد يبدو أنه قصة متكاملة مثل قصة يوسف وموسى وفرعون وبني إسرائيل. ويستطيع القارئ أن يتبين ذلك بسهولة، وهذا يغني عن التمثيل.

ثالثاً: إن القصص القرآنية من التشابهات التي يحتمل كثير من صيغها وعباراتها وجوها عديدة للتأويل أو التي في بعض صيغها وعباراتها ما يعجز العقل الإنساني عن إدراك سره وتأويله. ويكون من واجب المؤمن المخلص أن يكتفي بالقول ﴿عَمَّا بِيَهُ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ كما علمنا الله عز وجل في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ

إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَمَّا بِهِ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ (آل عمران: ٧).

وهذا ماثل في كثير من آيات القصص وصيغها المتنوعة لا يعيا عن لمحها المتوسطون في الثقافة فضلاً عن الراسخين.. ومن الأمثلة البارزة على ذلك قصة خلق آدم فقد ذكرت آية البقرة (٣٠) أن الله سبحانه أراد من خلقه أن يجعله ويجعل نسله خلفاء في الأرض. ومع ذلك فإنه أسكنه الجنة مع زوجته ولم يخرجها منها إلى الأرض إلا عقوبةً على أكلهما من الشجرة الممنوعة كما جاء في آيات البقرة (٣٥-٣٧) وغيرها. وقد ذكر في بعض الآيات أن الله خلقه من تراب (٥٩ آل عمران مثلاً)، وفي بعضها أنه خلقه من طين (سورة ص ٧٦ مثلاً)، وفي بعضها أنه صلصال كالفخار (سورة الرحمن ١٤)، وفي بعضها أنه خلقه من صلصال من حمأ مسنون (سورة الحجر ١٨)، وخطوب في بعضها جميع الناس في معرض خلق الإنسان الأول (سورة الأعراف ١١) و (سورة المؤمنون ١٢-١٥) و (السجدة ٧-٩) وذكر في بعضها مراجعة الملائكة لله وحوارهم معه في صدد خلق آدم وخلافته في الأرض، وأن الله علم آدم الأسماء كلها. وأمر الملائكة أن يسجدوا له فسجدوا إلا إبليس،

فطرده الله فطلب إنظاره فأنظره الله فآلى على نفسه أن يغوي ذرية آدم (سورة البقرة ٣٠-٣٦) و (سورة الأعراف ١١-١٨) و (سورة ص ٧١-٨٥).

فمما احتوته هذه الآيات ما يتحمل تأويله وجوها عديدة. ومنه لا يدرك سره عقل الإنسان. وقد يقاس على ذلك ما جاء في قصص سليمان ودأود في سورة النمل وسبأ وص وغيرها وغيرها.

ومن الحكم المتبادرة في النقطة الأولى أن المخاطبين يتأثرون بما احتوته الحادثة أو القصة التي تورد عليهم من موعظة ومثل أو تذكير أو زجر أو تنبيه أو دعوة إلى الاعتبار والارعاء والتأسي والتدبر في العاقبة إذا كانت مما يعرفونه أو يسمعون عنه حتى ولو كان في نطاق هذه المعرفة والسمع ضيق من حيث التفصيل أو عدد الأشخاص العارفين والسامعين. أما إذا لم يكن أحد يعرف ذلك فان الكلام لا يستحكم الإلزام والإفحام والتأثير والعبرة، ولا سيما على مخاطبين جاحدين لأصل الدعوة التي يراد التذكير بمواقف الغير والسابقين من مثلها ومصائرهم بسبب هذه المواقف أو جاهلين للحادثة التي يراد استخراج العبرة من سيرها وظروفها وعواقبها.

وملاحظة ذلك مع ملاحظة هدف القصص القرآنية وكونها لم ترد لذاتها أو للسرد التاريخي ومع ملاحظة أن كثيراً من عباراتها يدخل في نطاق وصف المتشابهات التي تحتمل وجوها عديدة للتأويل أو التي يعجز عقل الإنسان عن سرها وتأويلها ضرورية؛ بل واجبة على من حسنت نيته من الناظرين في القرآن والراغبين في فهم مداه. ومن شأن ذلك أن يعصمه من الاستغراق في ماهيات ووقائع ما احتوته من إشارات إلى أحداث ووقائع وأشخاص. وأن يغنيه عن التكلف والتجوز والتمحل في التخريج والتأويل والتوفيق. وأن ينجيه من الحيرة أو التساؤل في صدد تلك الماهيات والوقائع. وأن يجعله يبقى القرآن الكريم في نطاق قدسيته وهدفه من التذكير بالمعروف والإرشاد والعظة والعبرة. ولا يخرج به إلى ساحة البحث في الوقائع وما يكون من طبيعته من الأخذ والرد والنقاش والجدل والتكشيك على غير طائل ولا ضرورة. ولا سيما أنها ليست من المحكمات والأسس الدينية، وإنما هي كما قلنا من الوسائل القديمة والمتشابهات التي لا ضرورة دينية للإحاطة بوقائعها وماهياتها ومداهها ولا للتوسع والتزيد فيها في سياق تفسير القرآن وفهمه.

وإذا كان غير واحد من المفسرين المطولين قد تورطوا في ذلك وأوردوا بيانات كثيرة على هامشها فيها كثير من الخيال والإغراب والتكلف حتى شغل ذلك الحيز الأكبر من كتبهم، وصارت القصص نتيجة لذلك قديماً وحديثاً شاغلة لأذهان الناس والمسلمين. وكادت تغطي على أهداف القرآن ومحكماته. وصارت مشار جدل بسبيل إثباتها وإنكارها وتعليلها. واستكشاف الحقائق والأحداث التاريخية منها، حتى تعرض القرآن للجدل والنقاش بسببها؛ فإن القرآن لا يتحمل مسؤوليته. وإن كان ذلك يدل على أن بيئة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت تتداول كثيراً من الروايات المتصلة بهذه القصص، وبالتالي يؤيد ما قلناه من أن أهل هذه البيئة كانوا يعرفون ويتداولون الشيء الكثير منها. وإنما يتحمل مسؤوليته الذين رووا وتوسعوا وتزيدوا وتكلفوا وجمعوا الغث والسمين والخيال والمبالغة مع الحقائق والمعقول وغير المعقول ثم الذين دونوها في كتبهم بدون غربلة وكانوا جديرين بذلك، فكان حصيلة ذلك تلك الفصول الطوال التي يسميها بعضهم بالإسرائيليات، والتي شغلت أذهان الناس وشوشت على أهداف القرآن ومحكماته وما تزال. ولا سيما أن في القرآن كما شرحن الدليل الناصع القاطع على أن

ذلك ليس من أهداف قصصه وأن أهداف قصصه هي العظة والعبرة والإنذار والتبشير والتسليّة والتطمين. ويظل الوقوف منها عندما اقتضت حكمة التنزيل إيجازها منها بالأسلوب الذي أوحى به هو الحق الأولى بالقول والتقرير، مع واجب التنبيه على أن آيات القصص جاءت بأسلوب يجعل ما احتوته من هذه المقاصد غير قاصر على سامعي القرآن لأول مرة؛ بل شاملاً وعاماً ومطلقاً على الأعم الأغلب ليكون كذلك بالنسبة للأجيال الإنسانية التالية إلى ما شاء الله ليجدوا فيها العبرة والعظة والتلقين والتوجيه والتشريع والطمأنينة، وهو الأسلوب الذي تميز به القرآن الكريم ورشحه للحضور والشمول.

الهوامش:

- (١) الضمير عائد لكفار العرب السامعين بأسلوب إنكاري يفيد الإيجاب.
- (٢) الآية الأخيرة تفيد أن السامعين عرفوا أخبار السابقين ونكال الله بهم أثناء تطوافهم في بلادهم.
- (٣) الآية تفيد أنهم رأوا القرية التي أمطرت مطر السوء وآثار ذلك.
- (٤) المقصود هم قوم لوط وبلادهم المدمرة الواقعة على ضفاف بحيرة لوط في غور الأردن. وكان تجار الحجاز يمرون بها أثناء ذهابهم إلى فلسطين ومصر للتجارة وعودتهم فيرون آثار الدمار ويسمعون قصته.

بقية «إشراقية» المنشورة على ص ٥٦

وبينما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي بأصحابه، إذ خلع نعليه، فوضعهما على يساره، فلما رأى القوم ألقوا نعالهم، فلما قضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاته قال: «ما حملكم على إلقاء نعالكم؟» قالوا: رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا، فقال: «إن جبرئيل - عليه السلام - أتاني فأخبرني أن فيها قدرا - أو قال: «أذى» - وقال: «إذا جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر فإن رأى في نعليه قدرا أو أذى فيلمسحه وليصل فيها».

الله أكبر، لم ينتظروا حتى ينصرف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صلاته فيسألوه عن سبب خلعه نعاله فإن كان لابد فعلوه أو أمسكوا عنه، ولكن سرعة الاستجابة من غير نقاش أو استفسار؛ ومسابقة إلى تطبيق ما يجدون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعلُه أو يقوله - هل يدع ذلك مجالا لكل ذلك؟ كذلك الحب إذا تغلغل في القلب، ولامس سويداءه، وتسرب إلى الأحشاء، وجرى في الشرايين

مجرى الدم، فعل الأفاعيل وأتى بالعجائب والمعجزات، يقول سويد بن أبي كاهل الشكري:

وَكَذَاكَ الْحُبُّ مَا أَشْجَعَهُ

يَرْكَبُ الْهَوْلَ وَيَعْصِي مَنْ وَرَعُ

فالحب سر الله تعالى في عباده وقد فتح لأصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه لنفسه ولرسوله على أقدارهم وحسب مشيئته: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

ورجل من الصحابة آخر، تزوجت أمه - وهو صغير - النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد مات أبوه، فتربى الصغير في بيت النبوة، وصنع على عين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان أسعد الأيتام حظا وأطيبهم بالاً وأوفاهم نصيباً، فكان طعامه وشرابه مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذات يوم أتى النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطعام، وكانت يد الصغير تطيش في الصفحة، وجعل يحركها في جوانبها ويأكل من نواحيها، فعلمه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آداب الطعام فقال: «يا غلام، سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك».

ثم ماذا؟ هل كان توجيهًا عابرًا مضى لسيبله وعاد نسيا منسياً، ورجع إلى ما كان عليه من عادة الصبيان وصغار السن؟ لا، والله، فإنه يقول: «فما زالت تلك طعمتي بعد» أي التزم بما أمره الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منذ أن سمعه منه وظل عليه ما دام على قيد الحياة. فقد صادف هذا التوجيه النبوي قلباً صافياً فتمكن منه. فالتعليم في الصغر - حين يكون عقل الصغير صفحة بيضاء، كما قالوا - يشبه النقش على الحجر يتأصل في الذهن لا يزول ولا يمحي، ويمتد أثره إلى كبر السن والطعن في العمر، والتعلم في الكبر أشبه بالنقش على الماء الذي هو على وشك الزوال والامحاء، ويتطلب مجهوداً مضاعفاً مراتٍ كثيرة. ومن هنا قال الإمام الشافعي رحمه الله:

وَمَنْ لَمْ يَذُقْ ذَلَّ التَّعْلُمُ سَاعَةً
تَجَرَّعَ كَأْسَ الدُّلِّ طُولَ حَيَاتِهِ
وَمَنْ فَاتَهُ التَّعْلِيمُ وَقْتَ شَبَابِهِ
فَكَبَّرَ عَلَيْهِ أَرْبَعًا لَوْفَاتِهِ
وقصة أخرى مماثلة لاحتضان الصحابة رضي الله عنهم وتشبعهم للتوجيهات النبوية وتشربها بشتى صورها وألوانها، والأخذ عليها بالنواجذ، وإتباع التصديق بسرعة الاستجابة والعمل بها، قصة تحمل في ثناياها كثيراً من الأبعاد والمفاهيم التربوية: تربية على مكارم الأخلاق، والاستغفاف عن مسألة الناس والاستغناء عنهم، والترفع عن احتمال منن البشر، والصبر على مضض الحاجات، وتجرع كأسها، وعزة النفس وإبائها وبعد المهمة وسموها.

فعن حكيم بن حزام رضي الله عنه - وهو من مسلمة الفتح، ومن أشرف قريش وجوها في الجاهلية والإسلام، شهد بدرًا مع الكفار ونجا منهزماً، فكان إذا اجتهد في اليمين قال: والذي نجاني يوم بدر. ولم يصنع شيئاً من

المعروف في الجاهلية إلا وصنع في الإسلام مثله
- قال: سألت رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته
فأعطاني، ثم قال: «يا حكيم، إن هذا المال
خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة - وفي رواية:
بطيب نفس - بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف
نفس، لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا
يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى». فقال
حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك
بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق
الدنيا.

فكيف كان حكيم بعد ذلك؟ تشبث
بالوصية النبوية تشبث الغريق المتغوث بالقشة،
ولم يَرْضَ عنها بديلاً، فكان أبو بكر يدعو
حكيم بن حزام ليعطيه العطاء، فيأبى أن يقبله،
ثم إن عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه، فأبى أن
يقبل منه شيئاً، فقال: إني أشهدكم - يا معشر
المسلمين - على حكيم أني أعرض عليه حقه
الذي قسم الله له من هذا الفيء، فيأبى أن
يأخذه. فلم يرزأ حكيم أحداً من الناس بعد

رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حتى توفي رحمه
الله ملاً قبره نوراً وضياءً. فكان ذلك ديدنه
طول حياته.

وقصة أخرى شبيهة بقصة حكيم بن حزام جاء عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه - من نبلاء الصحابة وأفاضلهم - قال: كنا عند رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا تبايعون رسول الله؟». وكنا حديث عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم: «ألا تبايعون رسول الله؟ قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس، وتطيعوا - وأسرّ كلمة خفية - «ولا تسألوا الناس شيئاً». قال عوف: فلقد رأيتُ بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحداً أن يناوله إياه.



إن كان قال فقد صدق

«إن كان قال فقد صدق» كلمة قليلة المبنى كثيرة المعنى، خفيفة على اللسان ثقيلة على التطبيق والعمل، وكلمة جرت على لسان الصديق رضي الله عنه، لها أبعاد ومفاهيم أكثر مما نظن في بادئ الرأي، وفي أول الوهلة.. إنها توحى إلى تصديق أعمق، تصديق لا يشوبه دغدغة أو ريبة أو شبهة، تصديق العالم الشاهد للحدث كأنه رأي العين أو أعظم منه وقعًا في النفس والقلب في أحلك الأوضاع وأحرج الساعات التي كثر فيها الاستهزاء بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعظم تكذيبه وتكذيب ما جاء به من عند رب العالمين من فوق سبع سموات، وتكذيب ما أريه من آيات ربه الكبرى حين عرج به إلى السماوات وإلى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى.

فهذه المسارعة إلى تصديق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل ما نزل عليه وما نطق به لسانه، وتطبيق أوامره حتى إشارات وألحاظه كان دأب الصديق رضي الله عنه وإخوانه من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، الذين تربوا في المدرسة النبوية مدرسة صاحب الرسالة العظمى... مسارعة إلى أقصى الحدود... مسارعة تشخص لها الأبصار وتستهو القلوب.

مسارعة إلى تطبيق ما أمر به أو الانتهاء عما نهى عنه - إلى أقصى الغايات وأغرب من الخيال ومن عنقاء مغرب، حرص على التطبيق والتنفيذ ولو جرَّ ذلك عليهم متاعب وأضرارًا فيما يبدو، والأمثلة على ذلك أعجب من العجب وأكثر من أن يعبر عنه قلم كاتب أو يصفه لسان أديب مهما أوتي من اللسن والحنكة البيانية والفصاحة والبلاغة.

أبو عائض القاسمي المباركفوري

(البقية على ص ٥٣)